الفصل الثاني:

سقوط بغداد على أيدي المغول

المبحث الأول: خلفاء جنكيز خان

أولاً: تقسيم ممالك جنكيز خان:

كان لجنكيز خان زوجات ومحظيات كثيرات ولكنه كان يفضل عليهن جميعاً زوجته المسماة «يَسُونجين بَيْكي» ولهذا كان يعز عليه أبناءه من هذه الزوجة ويقدمهم على أبنائه الآخرين، وقد أنجب جنكيز خان تسعة أولاد من بينهم أربعة كانوا من زوجته يسونجين وهؤلاء الأبناء الأربعة هم: جوجي وجغتاي وأوكَتاي وتوُلوُي، وكان أبوهم جنكيز خان يعهد إليهم بجلائل الأعمال، كما كان يعتمد عليهم اعتماداً كلياً في إدارة إمبراطوريته المترامية الأطراف، فمثلاً نراه يكلف أكبر أبنائه «جوجي» بالإشراف على شؤون الصيد وتنظيم القصور وتزيينها، وأما ابنه الثاني «جغتاي» فقد وكل إليه تنظيم شؤون القضاء والعمل على تنفيذ أحكام جنكيز خان وقوانينه وتوقيع الجزاء والعقاب على المقصرين، وجعل ابنه الثالث «أوكتاي» يختص بالشؤون المالية والإدارية، ويقوم بتنظيم شؤون الملك، وتدبير مصالح الناس، وفوض إلى ابنه تولوي مباشرة شؤون الدفاع وإعداد الجيوش، وكان يدعى «إلغ نويان[1]»، وقد رأى جنكيز خان أن خير وسيلة لتدريب أبنائه على مباشرة مهام الحكم وتحمل المسؤوليات، هو أن يقسم إمبراطوريته بينهم وهو على قيد الحياة، وقد تم التقسيم على النحو التالي:

1 ـ كان نصيب جوجي وهو أكبر أبناء جنكيز خان، البلاد الواقعة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، وكان في تلك البلاد عامة القبجاق ويطلق عليه اسم «القبيلة الذهبية» نسبة إلى خيم معسكراتها ذات اللون الذهبي، وكان غالب

(1) معنى الغ نويان: الأمير الكبير.

أهلها من الأتراك والتركمان[1]، ولما كان جوجي قد توفي قبل وفاة أبيه قرر جنكيز خان أن تكون هذه المناطق من نصيب حفيده «باتو بن جوجي» الذي اشتهر برقة العاطفة وعذوبة الحديث وشدة التعقل وأصبح رأس بيت جنكيز خان وقام بدور حاسم فيما نشب من منازعات على ولاية العرش للإمبراطورية.

2 ـ اختص جغتاي ببلاد الأويغور، وأقاليم ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنه.

3 ـ نال أوكتاي ولي العهد، قسماً يقل عن نصيب إخوته وكان ينحصر في مناطق جبال تار باجاي، وأطراف بحيرة ألاجول وحوض نهر اليميل الذي يصب في تلك البحيرة ويقع غربي منغوليا.

4 ـ منغوليا، المنطقة الأصلية لجنكيز خان وآبائه وأجداده والتي تشمل وديان أنهار كرولين وأونن وأرخن ومنطقة قراقورم كانت من نصيب تولوي أصغر أبناء جنكيز خان، وقد استمر يحكم الإمبراطورية مدة عامين 624 ـ 626 هـ (1227 ـ 1229م) بصفته وصياً على العرش، طبقاً للعرف المغولي، وذلك بمساعدة ثلاثة من المستشارين إلى أن انتخب الخان الجديد خلفاً لجنكيز خان[2].

ثانياً: انتخاب أوكتاي خاناً أعظم للمغول: بعد وفاة جنكيز خان وظل العرش خالياً من ملك لمدة عامين، وأخيراً رأى الأمراء الكبار ضرورة التعجيل بتنصيبهم خاناً جديداً، حتى تنصلح الأمور ولا يتطرق الفساد والخلل إلى أساس الملك، وقد استقر رأيهم على اتخاذ هذه الخطوة، فأوفدوا الرسل إلى الجهات والأطراف وصاروا يمهدون لعقد مجلس الشورى «القوريلتاي»، ووفد على منغوليا الأمراء وقواد الجيش وظلوا هناك ثلاثة أيام في متعة وأنس وطرب، وشرعوا بعد ذلك في تبادل وجهات النظر بخصوص اختيار الخان الجديد، فاجتمعوا على تولي أوكتاي عرش الخانية، ولكنه حاول التنحي والاعتذار بأنه غير آهل لتولي هذا المنصب الخطير، وأن أخاه «تولوي» أجدر منه بمباشرة هذا الأمر، والالتزام به، لأنه الأخ الأصغر، وطبقاً لتقاليد المغول ورسومهم يقوم مقام الأب ويتعهد داره لأنه كان ملازماً لأبيه ليلاً ونهاراً ويعرف الأصول والقوانين، غير أن إخوته وأقاربه، أغلقوا أمامه كل باب للاعتذار وأصروا عليه على أن يقبل هذا المنصب، وذكروه بوصية أبيه في هذا الشأن، فنزل على مشيئتهم آخر الأمر،

(1) السلوك للمقريزي، نقلاً عن: المغول، د. الصياد، ص: 164.
(2) المغول، للصياد، ص: 165.

وعندئذ أخذ «جغتاي» يد أخيه «أوكتاي» اليمنى وأخذ تولوي يده اليسرى وأمسك عمه «أوتجكين» بحزامه وأجلسوه على سرير الخانية ورفع الحاضرين داخل البلاط وخارجه وأعلنوا تنصيب أوكتاي «حاقاناً» أي خاناً أعظم للإمبراطورية المغولية، وذلك في القوريلتاي الذي عقد لهذا الغرض في ربيع سنة 626هـ (1229م) بعد ذلك قام الخان بتوزيع الأموال على الأقارب والعشائر. وطبقاً للرسوم والعادات المتبعة عند المغول، أمر بتقديم الأطعمة لمدة ثلاثة أيام متتالية صدقة على روح جنكيز خان، كذلك اختار أربعين فتاة حسناء من نساء الأمراء الذين كانوا يلازمونه وألبسوهن أفخر الثياب وزينوهن بالمرصعات والجواهر، ثم أرسلوهن على جياد أصيلة إلى جنكيز خان[1] ـ قتلوهن وذلك على على حد زعمهم ومعتقدهم ـ وعلى أثر تولية أوكتاي عرش المغول، قرر أن تكون كل الأحكام التي أمر بها جنكيز خان نافذة المفعول، وأن تبقى مصونة بعيدة عن التغيير والتبديل، كذلك أصدر عفواً شاملاً عن جميع الأشخاص الذين ارتكبوا ذنوباً قبل جلوسه على العرش، وهدد بإنزال العقاب الصارم على كل من تحدثه نفسه بمخالفة القوانين بعد ذلك، واهتم اهتماماً كبيراً بإكمال الفتوحات التي بدأها والده جنكيز خان فكوّن الجيوش اللازمة لغزو إيران وأوربا والصين[2].

ثالثاً: المغول يواصلون زحفهم في البلاد الإسلامية: لقد كان انتخاب أوكتاي ابن جنكيز خان لأعظم للمغول إيذاناً بشن حملة جديدة على ممالك الدولة الخوارزمية والقضاء عليها نهائياً، على أن المغول الذين كانوا لا يزالون يحتلون منطقة ما وراء النهر، قاموا قبل ذلك بعدة حملات منظمة عل قوات السلطان جلال الدين منكبرتي، كانت تسفر تارة عن انتصار جلال الدين وتارة أخرى على انتصار المغول[3]، ولكنها على كل حال لم تؤد إلى نتيجة حاسمة، إلى أن عهد «أوكتاي» إلى قائده المشهور «جُز ماغون نويان» بقيادة الحملة على إيران، فسار على رأس جيش كبير تعداده 50000 جندي، مصطحباً معه عدداً من أمهر قادة المغول، وقد قدم الجميع إلى تركستان حيث طلبوا المدد من أمراء المغول وحكامهم في خوارزم، وبالإضافة إلى ذلك أضيفت إلى هذا العدد الكبير قوات أخرى غير نظامية من أسرى الأعداء، فبلغ عدد الجميع 100000 جندي[4]، واستطاع المغول تدمير

(1) المغول، ص: 167، للصياد.
(2) المصدر نفسه، ص: 167.
(3) المصدر نفسه، ص: 171.
(4) المصدر نفسه، ص: 171.

جيش جلال الدين منكبرتي كما مرَّ معنا، وبعد أن تخلصوا من أخطر عدو استطاع أن يواجههم ببسالة، أصبح الطريق أمامهم ممهداً للفتح والغزو دون أن يعوقهم عائق، أو تقف في طريقهم عقبة، فاستطاعوا في يسر وسهولة أن يشنوا حملاتهم على معظم البلاد الإسلامية[1]، وينشروا فيها الخراب والدمار، وكان هناك قائد خوارزمي اسمه «أورخان» وهو الذي استطاع أن ينقذ حياة جلال الدين عندما هاجمه المغول في آخر مرة قبل أن يفر منهزماً إلى كردستان، كان هذا القائد لا يزال على قيد الحياة بعد مقتل جلال الدين، فسار على رأس 4000 جندي من الجنود الخوارزميين وصلوا إلى إربل، ومن هناك أسرع أورخان بمفرده إلى أصفهان حيث لقي حتفه على يد المغول، وبعد ذلك تفرقت البقية الباقية من جنود جلال الدين على جبال كردستان والجزيرة والشام، فقتل بعضهم على يد الأكراد وأعراب البدو واختار الباقون أن يعملوا كجنود مرتزقة في خدمة سلاطين الأيوبيين وسلاجقة الروم، وصاروا لفترات طويلة سبباً في إثارة كثير من المتاعب في البلاد التي يعملون فيها[2].

وقسم المغول قواتهم إلى ثلاثة جيوش رئيسة: فتح الجيش الأول ديار بكر، وأرزن الروم وميافارقين وماردين ونصيبين وسنجار، وقد تقدم هذا الجيش حتى بلغ ساحل الفرات، واشتط جنود المغول في القتل والسلب والنهب دون أن يجرؤ أحد من سكان هذه المناطق على مقاومتهم أو حتى مجرد سماع اسمهم، وقد استولى الرعب والفزع على قلوب الأهالي إلى الحد الذي يتضح فيما ساقه ابن الأثير من قصص تذكي لهيب الأسى في النفوس وتثير الشجون، تلك القصص التي قد يتوهم القارئ أنها سيقت على سبيل المبالغة لولا أنها جاءت على لسان مؤرخ يعتبر ثقة[3] فيما رواه، يقول: ولقد حكى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقاه الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس حتى قيل إن الرجل منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد ولا يتجاسر أحد أن يمد يده إلى ذلك الفارس[4].

وأما الجيش الثاني فقد قصد مدينة «بدليس» وبعد أن أحرقها استولى على بعض القلاع المحيطة بخلاط وغيرها.

---

(1) المغول، للصياد، ص: 179.
(2) المصدر نفسه، ص: 179.
(3) المصدر نفسه، ص: 179.
(4) المصدر نفسه، ص: 180.

وسار الجيش الثالث إلى منطقة أذربيجان، وشرع يفتح مدنها الواحدة تلو الأخرى، وأخيراً صمم عل احتلال حاضرتها تبريز، فسلمت دون مقاومة في أوائل سنة (629هـ/ 1232م)، وذلك لأن الأهالي هناك لم يكونوا على وفاق مع السلطان جلال الدين، وعندما تأكدوا من ضعفه ثاروا على الحكام الخوارزميين وقتلوهم وقطعوا رؤوسهم وأرسلوها إلى المغول تقرباً إليهم، لهذا لم يكد الجيش المغولي يقترب من أبواب تبريز حتى سارع الأهالي إلى تقديم فروض الطاعة، وقدموا مختلف الهدايا من مال وقماش إلى قواد المغول كما قبلوا شحنة من قبلهم، وتعهدوا بأن يدفعوا لهم جزية كبيرة كل سنة، فما كان من المغول إلا أن وافقوا على هذه العروض، ودخلوا المدينة، ولكنها سلمت من التخريب والتدمير إذا قيست بغيرها من المدن[1].

وفي عام (632 ـ 633هـ) (1234 ـ 1235م) دخل المغول إقليم إربل وغزوا حاضرته، إلا أن أهالي المدينة أسرعوا إلى القلعة، وتحصنوا فيها، فحاصرها المغول أربعين يوماً، وأخيراً افتدى الأهالي أنفسهم بمبلغ كبير من المال ورحل المغول عنها عندما سمعوا أن المدد قد جاء من بغداد، وبعد ذلك انتقلت القوات المغولية إلى العراق في سنة 634هـ (1236م) وواصلت زحفها شمالاً حتى وصلت مدينة (سامراء)، فلما شعر الخليفة يتهدده الخطر، أسرع وأعلن الجهاد بعد أن جمع مجلساً من العلماء أفتوا بأن الغزو في سبيل الله خير من الحج إلى بيت الله، فكان أن تجمع جيش كبير بقيادة مجاهد الدين الدوايدار[2]، واستطاع أن يهزم المغول بالقرب من تكريت ما بين دجلة وجبل «حَمْرَين» وأن يفك أسر عدد كبير من المسلمين كانوا قد وقعوا في أيدي المغول أثناء قتالهم في إربل، وأقام المسلمون الاستحكامات المنيعة حول بغداد وأعاد المغول الكرة وقصدوا بغداد عام 635هـ/ 1237م حيث هزموا المسلمين في الخانقين، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وعاد الباقون إلى بغداد[3].

واستمر المغول في مهاجماتهم لجورجيا وأرمينية ودمروا وخرّبوا ولكن المغول عادوا وأحسنوا معاملة أرمينية وجورجيا وسلكوا معهما نفس السلوك الذي سلكوه مع فارس وكرمان، وكذلك سيطر المغول سيطرة كاملة على الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية، دون أن يجدوا أدنى مقاومة، فسلمت سجستان وغزنة وكابل وحدود

(1) المغول، ص: 180.

(2) المصدر نفسه، ص: 181. الدويدار: في الأصل بمعنى الكاتب.

(3) الحوادث الجامعة، لابن الفوطي، ص: 113، المغول، للصياد، ص: 181.

السند، واستطاع المغول السيطرة على سلاجقة الروم عام (640هـ/ 1243م) بعد انتصارهم عليهم في معركة عنيفة بموضع «كوسة طاغ» ووضع الأناضول بعدها في قبضة المغول، وخضع السلطان غياث الدين لخان المغول والتزم بدفع جزية سنوية له[1].

1 ـ فتح أقاليم الصين الشمالية: بعد وفاة جنكيز خان نجحت أسرة كين في استرداد جزء كبير من مملكتهم، واتخذت مدينة كاي فونج في هونان عاصمة لها، فلما تولى أوكتاي حكم المغول أعد العدة لفتح هذه البلاد، فسير جيوشه إليها سنة 627هـ/ 1229م، وذلك في نفس الوقت الذي كان جنوده في إيران يتعقبون السلطان جلال الدين منكبرتي، وقد تحرك أوكتاي بنفسه مع أخويه جغتاي وتُولو إلى سهل «هوانج هو» الذي يطلق عليه المغول «فزاموران» ثم قسموا قواتهم إلى جيشين رئيسين: هجم أحدهما من الشمال بقيادة أوكتاي، واختار الآخر الهجوم على الجنوب بقيادة أخيه تولوي، وقد أسفرت المعارك عن انتصار المغول على قوات الصينيين انتصاراً ساحقاً وانتزعوا منهم مساحات شاسعة من الأراضي، وبعد ذلك عهد المغول إلى قائدهم المشهور «سبوتاي» بفتح العاصمة «كاي فونج»، وسقطت هذه العاصمة الكبيرة في أيدي المغول وقتل معظم سكان المدينة ولم يفلت منهم إلا القليل وكان ذلك في سنة 631هـ/ 1233م، وعلى إثر ذلك تقدم الوزير الحكيم «يي ليو جوتساي» إلى أوكتاي ملتمساً ألا يأمر بتدمير المدينة، بل يلحقها بالأملاك المغولية، واستجاب لطلبه[2]، وعند قيام المغول بحملتهم على الصين الشمالية كان حكام الصين الجنوبية من أسرة «سونج» يقدمون المساعدات للمغول طمعاً في أن يكون لهم نصيب في أراضي الصين الشمالية، فلما خابت آمالهم، نشبت الحرب بينهم وبين المغول وكانت هذه فرصة سانحة لهم للقضاء على هذه الأسرة أيضاً، وضم أملاكها إلى حوزتهم، ولكن تم هذا في عهد خلفاء أوكتاي[3].

2 ـ المغول في أوروبا: بعد أن عاد أوكتاي من الصين مظفراً، كوّن جيشاً عظيماً تعداده 150000 جندي أسند قيادته العليا إلى باتو بن جوجي، وكلفه بفتح بلاد الروس والجركس والبلغار وأقاليم أوروبا الشرقية، وكان القائد المغولي المشهور «سبوتاي» يتولى القيادة الفعلية، وقد تمكن هذا الجيش من الاستيلاء على كل المنطقة الواقعة بين جبال الأورال وشبه جزيرة القرم التي كانت موطناً للباشقرد والبلغار، وهزم حكام روسيا،

(1) المغول، ص: 183.
(2) المصدر نفسه، ص: 185.
(3) المصدر نفسه، ص: 186.

وأحرق مدينة موسكو، ودمر مدينتي سوزدال وفلاديمير، فاشتعلت النيران في سوزدال على حين شهدت فلادمير عند سقوطها عنوة أفظع المناظر، إذ دارت المذبحة في كل السكان الذين لجأوا إلى الكنيسة وسط لهيب النار، وبعد ذلك انسابت الجيوش المغولية إلى مملكة أوكرانيا، فقلبوا هذه المناطق رأساً على عقب وعاثوا فيها تخريباً وفساداً، واستولوا على عاصمتها «كييف» في سنة (638هـ 1240م) ودمروها تدميراً كاملاً، ثم نهبوا إمارة غاليسيا الروسية، وبذلك سقطت في أيديهم روسيا بأكملها، واستمرت تلك المناطق الشاسعة خاضعة للمغول مدة قرنين ونصف 636هـ ـ 886هـ، وبعد أن تم فتح روسيا، انقسمت جيوشهم إلى قسمين: زحف القسم الأول على بولندا، وتوجه القسم الثاني إلى المجر. وقد تمكن القسم الأول من التغلب على جيش متحالف من البولونيين والألمان يبلغ تعداده 30000 جندي، واستولى المغول على مدينة «بِرسلاو» وتقدموا حتى مدينة برلين، بعد أن أنزلوا بالسكان الفناء والهلاك وبالمدن الخراب والدمار، وفي هذا الإقليم وحده جمعوا أكياساً ملأوها بآذان ضحاياهم وقتلاهم فبلغ مجموعها 270000 أذن أخذوها معهم دليلاً على ما كانوا يفخرون به من بأس وسطوة[1].

وأما القسم الثاني فقد تغلب أيضاً في نفس الوقت على المجريين واستولى المغول على عاصمتهم «بِست» وتقدموا إلى فيينا من جهة وإلى سواحل بحر الأدرياتيك من جهة أخرى، وبينما المغول سائرون في فتوحاتهم على قدم وساق في أوروبا إذا بالأنباء ترد إلى أوروبا تعلن وفاة أوكتاي في سنة 639هـ/ 1241م واستدعاء باتو وسبوتاي لحضور القوريلتاي والاشتراك في انتخاب الخان الجديد، وبذلك سلمت أقاليم غرب أوروبا من خطر محقق كان ينتظرها على أيدي هؤلاء المغول[2].

3 ـ وفاة أوكتاي قاآن: كان أوكتاي ولوعاً إلى أقصى حد بالشرب والإدمان على الخمر، وقد تسبب هذا في ضعفه يوماً بعد يوم، ولم يتيسر للخاصة ولا الأصفياء منعه من ذلك، بل كان يكثر من الشراب رغماً عنهم، وعندما كانت جيوشه تحارب في أوربا، ظل مدة سبع سنوات عاكفاً على اللهو والمتعة والشراب إلى أن أثر هذا على صحته، وفي إحدى الليالي عندما حان أجله، أفرط في الشراب، فتوفي وهو نائم وكان ذلك في سنة 639هـ/ 1241م[3].

(1) تاريخ مختصر الدول لابن العبري، ص: 248، المغول، للصياد، ص: 187.
(2) المغول، للصياد، ص: 188.
(3) المغول، للصياد، ص: 188.

4 ـ النظم والإصلاحات التي تمت في عهد أوكتاي: قام أوكتاي بعدة إصلاحات في البلاد المغلوبة على أمرها فقد ترك زمام الأمور في الصين في يد وزيره الحكيم «يي ليو جوتساي» الذي استطاع أن ينشئ في هذا الإقليم إدارة حازمة منظمة، متعيناً في ذلك بالكتاب والعمال من الصينيين والأويغوريين والإيرانيين وأهل التبت، كذلك نجح في تنظيم الشؤون المالية، وضبط عمليات الداخل والخارج، وإلى هذا الوزير يرجع الفضل في إعداد ميزانية ثابتة للإمبراطورية المغولية، إذ ألزم الصينيين بأن يأدوا ضرائب معينة نقداً ونوعاً، بما يجري تقديره من أثواب الحرير وكميات الحبوب على حين يدفع المغولي عشرة في المائة مما يحوزه من قطعان الخيل والماشية والغنم، ثم أنه شيد في مدينة بكين «خان باليغ» مدارس لتخريج شباب ذوي خبرة وكفاءة، وفيها كانوا يدرسون تعاليم كونفوشيس[1]، ولما تم لأوكتاي فتح الصين الشمالية ولي عليها «محمود يلواج» كما نصب ابنه «مسعود بيك» حاكماً على إقليم ما وراء النهر، فقام الأب والابن بتعمير ما خربه المغول، وأخلصا في خدمة الناس وإصلاح أحوالهم وإدارة تلك المناطق أحسن إدارة[2]، وكان أوكتاي يميل إلى التعمير والتشييد وشرع في عام 631هـ/ 1234م في بناء عاصمة جديدة له وأمر بتشييد قصر شامخ في العاصمة الجديدة يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه رمية سهم بعيد المدى، وأقاموا في وسطه مقصورة عالية وأنجزوا ذلك المبنى في أكمل صورة وأتم نسق، ثم عكفوا على زخرفته وتزيينه بمختلف فنون النقش والتصوير وأمر بأن يبني كل من الإخوة والأبناء وسائر الأمراء والملازمين له دوراً فخمة حول هذا القصر فامتثلوا جميعاً الأمر، وعندما تمت هذه المباني واتصل بعضها ببعض كونت مجمعاً عمرانياً رائعاً وكان ذلك بإشراف أمهر المهندسين الصينيين الذين قد أحضرهم معه[3]، وطور أوكتاي نظام البريد وفكر في حفر الآبار على امتداد دروب الصحراء في آسيا الوسطى[4].

5 ـ معاملة أوكتاي لرعاياه من المسلمين: كان أوكتاي ملكاً كريماً نبيل الخلق، طيب المعاملة للمسلمين على حين أن أخاه جغتاي، كان لا يكف عن إيذاء المسلمين، وإلحاق الضرر بهم، وكان يود أن يستأصل شأفتهم من سائر البلدان، وتنفيذاً لهذه السياسة درج على تحريض كبار الشخصيات المغولية من الأمراء والقواد

(1) المغول، للصياد، ص: 189.
(2) المصدر نفسه، ص: 189.
(3) المصدر نفسه، ص: 191.
(4) المغول، د. العريني، ص: 162.

لكي يوشوا بالمسلمين عند أوكتاي حتى يتغير عليهم ويعمل على الخلاص منهم، وذات يوم جاء راهب بوذي إلى الخان وقال له: إنه رأى جنكيز خان في المنام، وإنه يأمر ابنه أوكَتاي بضرورة العمل على هلاك المسلمين في جميع الأقطار ويوصيه بألا يتردد لحظة واحدة في تنفيذ هذا الأمر لأن المسلمين أصبحوا الآن كثرة، وسوف يكون على أيديهم القضاء على ملك المغول، فلما سمع أوكتاي هذا الحديث، وكان ذكياً ومحباً للمسلمين، أدرك بفراسته على الفور أن هذا الكلام كذب ومحض افتراء، وأنه من إيحاء أخيه الظالم جغتاي. ثم دعا أوكتاي إلى عقد اجتماع كبير حضره كبار الشخصيات من المغول وحكام الممالك وأمر باستدعاء ذلك الراهب، وكلفه بأن يعيد سرد رسالة جنكيز خان على مسمع من الحاضرين ففعل، بعد ذلك قال أوكتاي: ينبغي أن تكون لكل دعوى حجة وبرهان حتى يتبين الصدق من الكذب، والصحة من السقم، فأمن الجميع على ما قال أوكتاي، ثم توجه الخان إلى الراهب وسأله: أتعرف المغولية أم التركية أم الاثنين معاً؟!..فأجاب الراهب: إنني أعرف التركية فقط، عندئذ قال أوكتاي: إن جنكيز خان كان لا يعرف سوى المغولية وأنت لاتعرف سوى التركية، فبأية لغة إذن بلغك هذا الأمر: هل بالمغولية أو بالتركية[1]، فلما تأكد الراهب أنه قد افتضح أمره، لم يحر جواباً، واعتراه الخجل، وعلى هذا اتضح للجميع كذبه ونفاقه، ولكن أوكتاي لم يدع هذه الفرصة تمر دون أن يلقن هذا الراهب درساً لاذعاً في الأخلاق فقال له: إنني لن أستبيح دمك احتراماً لأخي جغتاي، فعد من حيث أتيت، وقل لجغتاي وزمرته: أن كفّوا أيديكم عن إيذاء المسلمين لأنهم إخوتنا وأصدقاؤنا، وقد استمدت مملكتنا القوة منهم وبعونهم أصبح العالم مسخراً لنا وطوع أمرنا.

ويروى أيضاً أن المغول كانوا أصدروا قراراً بألا يذبح أي شخص الخراف والحيوانات الأخرى التي يؤكل لحمها كذبيحة المسلمين، بل تشق صدورها وأكتافها، وذات يوم اشترى رجل مسلم خروفاً من السوق، وأخذه إلى البيت، وأوصد الأبواب، ثم سَمّى ـ الله ـ وهمّ بذبحه، واتفق أن رآه في السوق رجل تركي من القبجاق، فتعقبه وتسلق السطح، وقيد ذلك المسلم وسحبه إلى بلاط القاآن، فأرسل القاآن نوابه للتحقيق، وعندما أطلعوه على ما جرى قال: إن الرجل الفقير قد احترم القانون، وهذا التركي ترك القانون، لأنه صعد إلى دار الفقير، وبهذا نجا المسلم وقتل القبجاقي[2].

(1) المغول، د. الصياد، ص: 193.

(2) جامع التواريخ (2/ 62 ـ 63) المغول، للصياد، ص: 194.

6 ـ كيوك خان (644 ـ 647هـ = 1246 ـ 1249 م): على إثر وفاة أوكتاي، اضطربت أحوال المغول، واختلفوا على من يخلفه على العرش، فالأمير «باتو» ملك خانات روسيا ووداي القبجاق وأحد كبار الأمراء البارزين في أسرة جنكيز خان لم يكن يميل إلى أن يتولى عرش المغول أحد من أسرة أوكتاي، كذلك كان يرغب «كوتان» الابن الثاني لأوكتاي في تولي هذا المنصب بعد أبيه، وكان هناك فريق آخر يرى التقيد بوصية الخان الراحل، واختيار حفيده الطفل «شيرامون» ليكون خاناً أعظم للمغول، ونظراً لمرور وقت طويل دون أن يستقر المغول على رأي معين بخصوص هذه المسألة وبسبب غياب كيوك الابن الأكبر عن المقر الأصلي للمغول، تهيأت الفرصة للطامعين في تولي هذا المنصب، وكان من بينهم أوتجكين أخو جنكيز خان، إذ أراد أن يغتصب العرش بالقوة، وتوجه لتنفيذ هذه الخطة إلى معسكر القاآن بجيش جرار مزود بالعدة والعتاد، فهاج الجند والأتباع، وما إن علمت توراكينا بهذا التدبير، حتى بادرت بإرسال الرسل إلى أوتجكين تعتب عليه في رفق، وتعمل على استمالته إلى جانبها، فنجحت في هذا السبيل، إذ ندم أوتجكين ومهد سبيل الاعتذار، ثم قفل عائداً إلى موطنه.

ولكن توراكينا خاتون لم تأبه بهذه المحاولات، وصممت على أن يتولى ابنها كيوك هذا المنصب، ولبلوغ الغاية، صارت تبذل قصارى ما في جهدها لمدة تربو على أربع سنوات في سبيل اجتذاب الأقارب والأمراء بأنواع التحف والهدايا حتى ضمت الأغلبية إلى صفها، وصاروا رهن إشارتها، كذلك سنحت لها الفرصة للتخلص من كبار الشخصيات والولاة الذين كانوا ضد سياستها وكانت لها حاجبة تدعى «فاطمة» أصلها من مشهد طوس، ثم ألحقت بخدمتها، وكانت هذه المرأة غاية في الذكاء والكفاءة وموضعاً للثقة التامة، وكاتمة أسرار الخاتون، وكان عظماء البلاد يتخذونها أداة لتحقيق أغراضهم، فأخذت توراكينا خاتون تعزل بمشورة تلك الحاجبة الأمراء وأركان الدولة ممن كانوا يتقلدون المناصب الكبرى في عهد أوكتاي وعندما تأكدت «توراكينا خاتون» من أنها أصبحت تملك الورقة الرابحة ووجدت أن الظروف كلها مهيأة لنجاح خطتها، أرسلت الرسل إلى كبار الشخصيات المغولية من جميع الأطراف والأمصار لحضور جلسة القوريلتاي التي سوف ينصّب فيها كيوك رسمياً خاناً أعظم[1].

7 ـ اختيار كيوك خان خاناً أعظم للمغول: وفي عام (644هـ/ 1246م) انعقد

(1) المغول، للصياد، ص: 196.

القوريلتاي على ضفاف إحدى البحيرات غرب منغوليا، فاقترح أغلب الحاضرين انتخاب كيوك خاناً أعظم للمغول، ولكنه يعتذر محتجاً بضعفه ومرضه، وفي النهاية قبل أن يتقلد هذا المنصب نزولاً على رغبة الأمراء بشرط أن يكون الحكم وريثاً في سلالته، فوافق الجميع على ذلك، عندئذ خلع الأمراء قلانسهم، وحلوا أحزمتهم، وأجلسوا كيوك على العرش ثم أخذوا الكؤوس، وركعوا أمام عرشه، وأعلنوا انتخابه رسمياً خاناً للمغول، واستمروا يحتفلون بهذه المناسبة مدة أسبوع، وكان كيوك يقوم بتوزيع الأموال على الأمراء ورؤساء الفرق[1].

كان كيوك خان، رجلاً مغامراً محارباً ميالاً إلى الغزو والفتح، فهو أقرب الشبه إلى جده جنكيز خان ولم يكد يستقر في الحكم حتى لفت نظر الأمراء والنبلاء ضرورة مراعاة أحكام الياسا وتجنب الخروج عليها أو تحريفها وتأويلها، وأمر بمعاقبة الذين قصروا في أداء واجبهم أو ارتكبوا مخالفات في المدة السابقة على توليته، كذلك كلف أمراءه وقواده بتجييش الجيوش لفتح الصين الجنوبية وعهد بهذه المهمة إلى القائد المغولي سبوتاي، وأوفد «إيلجيكتاي» إلى إيران لفتح بقية الممالك الإسلامية، وجعل له السلطة العليا في الإشراف على شؤون الروم والكرج والموصل وديار بكر، ونصّب محموداً حاكماً على ممالك الخطا، وولى الأمير مسعود بيك حاكماً على ما وراء النهر وتركستان، وعين الأمير أرغون والياً على بلاد خراسان والعراق وأذربيجان وشروان واللور وكرمان وفارس وطرف الهند، وقلد السلطان «ركن الدين» سلطنة الروم لأنه قدم إلى منغوليا بمناسبة تنصيبه إمبراطوراً للمغول وعزل أخاه الأكبر «عز الدين» وقرر أن يكون داود الصغير المعروف بابن فيز ملكاً محكوماً لداود الكبير صاحب تفليس[2].

أ ـ سياسة كيوك خان مع المسيحيين: كانت توراكينا خاتون تدين بالمسيحية، ولهذا عهدت إلى الأمير «قداق» المسيحي بالإشراف على تربية ابنها كيوك منذ الصغر، ولما اعتلى عرش المغول قرب إليه «جينقاي» الذي كان يعمل مستشاراً ووزيراً لأبيه، وكان من قبيلة كرايت، يدين أيضاً بالمسيحية، ولم يكتف كيوك بهذا، بل قلده منصب الوزارة، فكان لهذين الرجلين تأثير كبير على الخان المغولي، إذ صار يعطف عطفاً

(1) المغول، للصياد، ص: 196.
(2) تاريخ مختصر الدول، ص: 257، المغول، ص: 198.

شديداً على رعاياه من المسيحيين من أمثال الأرمن والكرج والروس[1]، ويذكر المؤرخ بروان أن الجمعية العامة التي تمّ فيها انتخاب كيوك قد امتازت بوفرة عدد من حضرها من ممثلي الدول الأجنبية والشعوب الخاضعة لنفوذ المغول، فقد حضرها اثنان من الكهنة بعث بهما البابا بخطابات يرجع تاريخها إلى أغسطس سنة 1245م= 643هـ وقد استقبل هذان الكاهنان خير استقبال[2]، غير أن كيوك عندما قرأ رسالة البابا طلب إلى البابا أن يعترف بسيادته العليا وأن يقدم إليه مع سائر أمراء الغرب ليحلفوا له يمين التبعية، فلما عاد «يوحنا» إلى البابا في نهاية سنة 1247م قدم إليه هذه الرسالة المخيبة للآمال، وأرفق بها تقريراً مفصلاً ذكر فيه أن المغول لم يخرجوا إلا للغزو والفتح[3]. وخلاصة القول أنه في عصر كيوك خان ارتفع شأن المسيحيين على حين أنه لم يرتفع صوت للمسلمين وذلك بتأثير أمه من جهة وكانت تدين بالمسيحية وبتأثير وزيريه المسيحيين من جهة أخرى، كذلك وجد الأطباء المسيحيون الطريق ممهداً للإشراف على الشؤون الطبية في البلاط المغولي، وكان من أثر هذه السياسة أن شاعت بعض التقاليد المسيحية في الأوساط المغولية[4].

ب ـ وفاة كيوك خان 647 هـ/ 1249م: اضطربت أحوال المغول، واختلفوا على من يخلفه على العرش، فالأمير «باتو» ملك خانات روسيا ووادي القبجاق، وأحد كبار الأمراء البارزين في أسرة جنكيز خان لم يكن يميل إلى أن يتولى عرش المغول أحد من أسرة أوكتاي[5]، ولم يحضر إلى منغوليا لحضور جلسة القوريلتاي التي نصب فيها كيوك رسمياً خاناً أعظم، وعندما تولى كيوك خان الحكم أخذ على عاتقه أن يخضع «باتو» بسبب الموقف العدائي منه بصفة خاصة ومن أسرة أوكتاي بصفة عامة، ولكنه لم يكد يصل إلى حدود سمرقند حتى وافاه الأجل المحتوم في ربيع الثاني سنة647 هـ/ 1249م، أما والدته توراكينا خاتون، فقد توفيت قبله بعدة أشهر[6].

8 ـ اختيار منكو خاناً أكبر على العرش المغولي: على إثر وفاة كيوك خان،

(1) المغول، للصياد، ص: 199.
(2) المصدر نفسه، ص: 200.
(3) المصدر نفسه، ص: 200.
(4) المصدر نفسه، ص: 201.
(5) المصدر نفسه، ص: 195.
(6) المصدر نفسه، ص: 195.

أراد أوكتاي وأتباعه أن يقيموا «شيرامون» إمبراطوراً للمغول، ولكن لاتخاذ هذه الخطوة، كان لابد من الحصول على موافقة الأمير «باتو» باعتباره أكبر الأمراء سناً ومقاماً، فأصبح من حقه النظر في اختيار الملوك وتنصيبهم، وعلى هذا أرسلوا إليه يطلبون أن يحضر إلى منغوليا لعقد القوريلتاي وتنصيب الخان الجديد، فرد عليهم معتذراً بعدم قدرته على السفر إلى منغوليا بسبب مرضه، وفي نفس الوقت وجه الدعوة إلى كبار الأمراء والقواد للحضور إلى القبجاق حيث يقيم، والاشتراك في القوريلتاي لانتخاب الخان، ولكن أبناء أوكتاي وجغتاي عارضوا هذا الاقتراح، وأصروا على أن يعقد القوريلتاي في المقر الأصلي لجنكيز خان جرياً على العادة المتبعة، وعلى هذا امتنعوا على الذهاب إلى القبجاق واكتفوا بأن أنابوا عنهم بعض المندوبين، وأما منكو وإخوته فقد لبوا دعوة باتو، وأسرعوا إلى القبجاق حيث عقد القوريلتاي ونودي بمنكو إمبراطوراً على المغول وتلقب بلقب «منكو قاآن» وبهذا انتقل الحكم إلى أولاد تولوي الذين يمثلون الفرع الثاني من أسرة جنكيز خان. ولكن لما لم يكن جميع الأمراء ممثلين في هذا الاجتماع، أُتفق على أن يعقد القوريلتاي مرة ثانية في مطلع السنة الجديدة ويحضره الأمراء والعظماء لإقرار تنصيب «منكَو» خاناً أعظم للمغول بصفة رسمية.

وعقد القوريلتاي مرّة أخرى في شهر ذي الحجة 648هـ/أبريل1260م في منطقة قراقورم، وذلك رغم أنف المعارضين، وفيه أعلن انتخاب منكو رسمياً. ولكن المناوئين لسياسة منكو لم يخضعوا لهذا القرار، وحاولوا تدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم بالقوة، فعلم بذلك منكَو في الوقت المناسب وتمّ القبض على المتآمرين قبل تنفيذ خططهم، ولما حقق معهم اعترفوا بجرمهم، وكان منكو قآآن ينوي الصفح عنهم إلا أن الأمراء حذروه مغبة التهاون معهم، وأصروا على ضرورة الاقتصاص منهم، وأخيراً طلب مشورة محمود يلواج، فسرد إليه قصة الإسكندر وأرسطو ومؤداها أنه عندما استولى الإسكندر على أكثر ممالك العالم، أراد أن يسير نحو الهند، غير أن أمراء الدولة وأركانها خرجوا على طاعته وتخلفوا عن متابعته، وأخذ كل منهم يعلن الاستقلال والاستبداد، فعجز الإسكندر عن علاج هذه الوضع وأرسل رسولاً إلى وزيره أرسطو الذي لا نظير له، وأطلعه على عصيان أمرائه وتمردهم، وسأله عن إيجاد حل لهذه المسألة فدخل أرسطو مع الرسول إحدى الحدائق، وأمر بأن تُجتَثَّ الأشجار الكبيرة من جذورها وأن تغرس شجيرات صغيرة، فقال الإسكندر: لقد أجاب، وأنت لم تفهم مقصوده، وأهلك الإسكندر ـ على الفور ـ الأمراء المستبدين، ونصب أبناءهم في أماكنهم، فاستحسن منكوقآآن هذا القول وأمر بضرب أعناق الأمراء

المعتقلين ووضع جمعاً آخر في مكانهم.[1]

أ ـ إصلاحات منكوقاآن الداخلية: اهتم منكوقاآن بالإصلاحات الداخلية والنظم الإدارية عناية كبيرة، فنجح في هذا السبيل نجاحاً منقطع النظير، وكان من أحسن الحكام الذين ساسوا المغول سياسة بارعة، ورغم حرصه على التمسك بأحكام الياسا والمحافظة على آداب المغول، فإنه نظراً لطول معاشرته للأمم المتمدنة ولكثرة اختلاطه بالمتحضرين في الأمم المغلوبة، فقد تأثر نوعاً ما وكان يكره الترف، وينكر المباذل، وليس له هواية سوى الصيد، ومن صفاته أنه كان بالغ النشاط بارعاً في تسيير الإدارة متوقد الذكاء، جندياً باسلاً وسياسياً ماهراً، وبهذه الخصال أعاد القوة والحيوية إلى ما أقامه جده جنكيز خان من نظم ووهب الإمبراطورية المغولية أساليب إدارية محكمة، وجعل منها دولة بالغة القوة[2].

ب ـ تسويته بين طوائف الإمبراطورية المغولية: كان لا يفرق بين طائفة وأخرى، وعامل المسيحيين والمسلمين والبوذيين على قدم المساواة وكفل الحرية للجميع، إذ سمح للواحد منهم بأن يناظر الآخر ويجادله في المسائل الدينية في حرية تامة، وعلى الرغم أن منكو كان يدين بعقيدة أسلافه الشامانية، فإنه كان يشهد الأعياد البوذية والمسيحية والإسلامية دون تفرقة أو تمييز، إذ سلم بوجود إله واحد يعبده كل إنسان حسبما شاء[3]، ومنكو قاآن في هذا يسير على سياسة والدته «سُرقويتي بيكي» التي أثرت فيه تأثيراً كبيراً، فمع أن هذه المرأة كانت تدين بالمسيحية، إلا أنها سلكت سلوكاً حسناً مع الرعايا المسلمين، وكانت شديدة العطف عليهم، لا سيما الأئمة ومشايخ الإسلام، إذ أغدقت عليهم الكثير من العطايا والهبات، ولم تقف عند هذا الحد بل إنها أقامت في بخارى مدرسة على نفقتها الخاصة، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة وولت عليها شيخ الإسلام سيف الدين الباخرزي، وعينت المدرسين، ورعت شؤون الطلبة، وكانت تتصدق على الفقراء والمساكين من المسلمين، وقد استمرت على هذا النحو من فعل الخيرات إلى أن توفيت في شهر ذي الحجة سنة 649هـ[4] مارس 1251م[5].

(1) المغول، للصياد، ص: 209 جامع التواريخ 21/ 296 ـ 297.
(2) المغول، ص: 210
(3) المصدر نفسه، ص: 211.
(4) المصدر نفسه، ص: 211.
(5) المصدر نفسه، ص: 211.

جـ ـ مشروع التحالف بين المغول والمسيحيين: قابل منكوقاآن سفير لويس باحترام وأكرم وفادته وسمح له بأن يناظر العلماء البوذيين والمسلمين في حرية تامة، إلا أنه لم يعطه جواباً مقنعاً فيما يتعلق بتكوين اتحاد مع المسيحيين، بل إنه طلب إليه أن يسارع لويس مع جميع الملوك المسيحيين إلى الدخول في طاعته، وقد مكث «روبروق» خمسة أشهر في قراقوم وفي النهاية عاد إلى الشام حيث قابل لويس في مدينة عكا وقدم إليه الرسالة[1]، كان الخان المغولي الكبير لا يقبل أن يكون سيد في العالم سواه، وكانت سياسته الخارجية بالغة البساطة، إذ أن أصدقاءه يعتبرون أتباعاً له، أما أعداؤه فينبغي استئصال شأفتهم، أو إخضاعهم حتى يكونوا أتباعاً له، وكل ما استطاع «وليم روبروق» أن يحصل عليه، هو أنه استخلص وعداً صادقاً بأن يتلقى مساعدة طالما قدم أمراؤهم لبذل الولاء لسيد العالم. على أن ملك فرنسا لم يستطع التفاوض على أساس هذه الشروط وغادر «روبروق» قراقوم في أغسطس عام 1254م عائداً إلى بلاط باتو بعد أن اخترق آسيا الوسطى، ومن ثم اجتاز القوقاز وبلاد السلاجقة بالأناضول إلى أرمينية ومنها إلى عكا ولقي «روبروق» في كل مكان من الاحترام والتبجيل ما يليق برسول يقصد الخان الكبير، ومهما يكن من أمر فإن هذه الرحلة قد أمدت «وليم روبروق» بمعلومات كثيرة مفيدة عن المغول، ووصف لنا عاداتهم وطبائعهم وحياتهم الاجتماعية، وغير ذلك مما صادفه في رحلته، كما وصف جميع القبائل والجماعات التي كان يتكون منها العنصر المغولي والتي أخضعها جنكيز خان[2].

د ـ سياسة منكوقاآن الخارجية: في السنة التالية لحكم منكوقاآن، وبعد أن استقرت الأحوال الداخلية وتخلص من جميع المناوئين لسياسته، وجه عنايته نحو الغزو والفتح والعمل على توسيع رقعة الإمبراطورية، فصمم على فتح البلاد التي لم يتيسر فتحها من قبل، وقد دفعه هذا التصميم إلى تجهيز حملتين كبيرتين، نصب أخاه الأصغر «هولاكو» على رأس إحداهما وعهد إليه بالقضاء على الإسماعيلية وإخضاع الخليفة العباسي، ونصب أخاه الأوسط «قوبيلاي» على رأس الحملة الأخرى بفتح أقاليم الصين الجنوبية، واستعد منكوقاآن نفسه للسير بحملة أخرى بقصد الاستيلاء على بعض الأقاليم في هذه البلاد الفسيحة[3].

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 248، المغول، ص: 212، للصياد.
(2) تاريخ مفصل عن إيران، عباس إقبال (1/ 160).
(3) المغول، للصياد، ص: 216.

هـ ـ وقفة للتحليل: وصلت حدود دولة التتار في عام 639هـ من كوريا شرقاً إلى بولندا غرباً، ومن سيبيريا شمالاً إلى بحر الصين جنوباً، وهو اتساع رهيب في وقت قياسي وأصبحت قوة التتار في ذلك الوقت هي القوة الأولى في العالم بلا منازع.

- تولى قيادة التتار بعد «أوكتاي» ابنه «كيوك بن أوكتاي»، وقد كان لهذا الخاقان الجديد الرأي في تثبيت الأقدام في البلاد المفتوحة بدلاً من إضافة بلاد جديدة قد لا يقوى التتار على حفظ النظام فيها، والسيطرة على شعوبها وجيوشها، ومن ثم فقد توقفت الفتوحات التترية، في عهد هذا الخاقان، وإن ظل التتار يحافظون على أملاكهم الواسعة.

- ابتلع التتار في فتوحاتهم السابقة النصف الشرقي للأمة الإسلامية، وضموا معظم الأقاليم الإسلامية في آسيا إلى دولتهم وقضوا على كل مظاهر الحضارة في هذه المناطق، كما قضوا تماماً على أي نوع من المقاومة في هذه المناطق الواسعة، وظل الوضع كذلك لسنوات كثيرة لاحقة.

- ظل القسم الأوسط من العالم الإسلامي ـ والذي يبدأ من العراق إلى مصر ـ مفرقاً مشتتاً، لا يكتفي بمشاهدة الجيوش التترية وهي تسقط معظم ممالك العالم في وقتهم، وإنما انشغل أهله بالصراعات الداخلية فيما بينهم وازداد تفككهم بصورة كبيرة، كذلك كان القسم الغربي من العالم الإسلامي الذي يضم ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وغربي أفريقيا مفككاً تماماً.

- ذاق الأوروبيون النصارى من ويلات التتار وذبح منهم مئات الآلاف، ودمرت كنائسهم وأحرقت مدنهم، بل هددوا تهديداً حقيقياً أن يصل التتار إلى عقر دار الكاثوليكية النصرانية في روما.

- ومع أن النصارى رؤوا أفعال التتار إلا أن ملوك النصارى في أوروبا الغربية (فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وألمانيا) كانوا يرون أن هذه مرحلة مؤقتة سوف تقف عند فترة من الفترات.. ولذلك كان ملوك الصليبيين على استعداد كامل للتعاون مع التتار[1] ضد المسلمين.

(1) قصة التتار، ص: 93.

- أخذت عقائد الجيش التتاري في التغير بعد الحملات التي وجهوها إلى أوربا، فقد تزوج عدد كبير من قادة المغول من فتيات نصرانيات، وبذلك بدأت الديانة النصرانية تتغلغل نسبياً في البلاط المغولي، وهذا ساعد أكثر على إمكانية التعاون بين التتار والصليبيين.
- استمرت الحروب الصليبية الأوروبية على المسلمين في مصر والشام، وكانت مصر والشام في ذلك الوقت تحت حكم الأيوبيين، ولكن كانت هذه هي آخر أيام الأيوبيين، وقد دار الصراع بينهم وبين بعضهم، وأصبح المسلمون بين شقي الرحى: بين التتار من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى، ولم يمتنع المسلمون من الصراع فيما بينهم.
- في سنة 640هـ توفي المستنصر بالله الخليفة العباسي، وتولى الخلافة ابنه «المستعصم بالله» وكان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثين عاماً، وهو وإن كان قد اشتهر بكثرة تلاوة القرآن وبالنظر في التفسير والفقه، وكثرة أعمال الخير، إلا أنه لم يكن يفقه كثيراً في السياسة، ولم يكن له علم بالرجال، فاتخذ بطانة فاسدة، وازداد ضعف الخلافة عما كانت عليه، وسنأتي بإذن الله تعالى بذكره بالتفصيل.
- لم يبق فاصل بين المغول والخلافة العباسية في العراق إلا شريط ضيق في غرب إقليم فارس (غرب إيران الآن)، وهو على قدر من الأهمية وإن كان ضيقاً، إذ كانت تعيش فيه طائفة الإسماعيلية الشيعية الخطرة، وكانوا أهل حرب وقتال، ولهم قلاع وحصون، فضلاً عن طبيعة المكان الجبلية، وكانوا على خلاف دائم مع المذهب السني وكراهية شديدة له، وكانوا يتعاونون مع أعداء الإسلام كثيراً، فمرة يراسلون التتار ومرة الصليبيين، وكان المغول يدركون وجودهم، ومع ذلك فهم لا يطمئنون لهم، وما كانوا يرغبون في بقاء قوة ذات قيمة في أي مكان على ظهر الأرض[1].

رابعاً: هولاكو والقضاء على الإسماعيلية: لم يكن أمام المغول بعد استيلائهم على أملاك الدولة الخوارزمية أي قوة تستطيع اعتراض طريقهم نحو الغرب، وكان الحكام المسلمون يعرفون تمام المعرفة أهمية الدولة الخوارزمية، كحاجز قوي بينهم

(1) قصة التتار، د. راغب السرجاني، ص: 94.

وبين المغول، وعلى كلٍّ فقد حرص منكو خان على إعداد حملة هولاكو إعداداً محكماً يكفل لها النجاح، فقد أرسل المرشدين ليختبروا الطريق الذي سوف تمر منه عساكر هولاكو من قراقورم حتى شاطئ نهر جيحون، فأقاموا الجسور على الأنهار العميقة، وعلى مجاري المياه السريعة[1]. ثم رسم لأخيه الخطة التي كان عليه أن يتبعها حيث قال له: إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها، فينبغي أن تسير من توران إلى إيران، وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه في الكليات والجزيئات، وخص كل من يطيع أوامرك ويتجنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك، أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به، وابدأ بإقليم قهستان في خراسان، فخرب القلاع والحصون، فإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرض له مطلقاً، أما إذا تكبر وعصى فألحقه بالآخرين من الهالكين، كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد، وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً، وأن تخفف عن الرعية التكاليف والمؤن، وأن ترفه عنهم، وأما الولاية الخربة، فعليك أن تعيد تعميرها في الحال، وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة، وشاور دقوز خاتون في جميع القضايا والشؤون[2].

وخرج هولاكو على رأس جيشه من قراقورم عاصمة المغول في سنة 651هـ/ 1253م وفي طريقه لقي مساعدة كاملة من أمراء المغول الذين أعدوا له المأكل والمشرب في جميع المراحل، وحرصوا على أن ينظفوا الطريق التي تقرر أن يسلكها جيش هولاكو من الحجارة والأشواك، كما أعدوا السفن له لعبور الأنهار الكبيرة، كما قام الأمراء والنبلاء في تلك النواحي بحشد أعداد كبيرة من الجند للانضمام إلى جيش هولاكو[3]، وفي شهر شعبان سنة 653هـ/ 1255م وصل جيش هولاكو إلى سمرقند، وأمضى بها أربعين يوماً ثم توجه إلى مدينة كش، وهناك وصله كافة الأمراء والأكابر في خراسان وقدموا خضوعهم وهداياهم له، وأقام بهذه المدينة قرابة شهر وجه خلالها عدة رسائل إلى الملوك والسلاطين في البلاد المجاورة طلب منهم معاونته في تحطيم قلاع الإسماعيلية والقضاء عليهم، وفي مقابل ذلك تعهد لهم بأن يبقيهم على ولايتهم ولا

(1) جامع التواريخ(1/235) جهاد المماليك ضد المغول، ص: 46.
(2) جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، ص: 47.
(3) المصدر نفسه، ص: 47.

يتعرض لهم بسوء، وهددهم بأن امتناعهم عن مساعدته يجرهم إلى الهلاك وأنه سينزل بهم ما ينزل بالإسماعيلية[1].

1 ـ نشأة قلاع الإسماعيلية: حرص الفاطميون على نشر دعوتهم الإسماعيلية في أرجاء الدولة الإسلامية، ولقيت دعوتهم نجاحاً في فارس والعراق، وازداد نفوذ الإسماعيلية في عصر السلطان السلجوقي ملكشاه، حتى استولوا على أصبهان، ونشروا فيها دعوتهم في عهد زعيمهم أحمد بن عبد الملك بن عطاش، ومن تلاميذه الحسن بن الصباح من أصل يمني، نزح أبوه إلى الكوفة، ثم إلى قم، ومن قم، إلى الري، حيث ولد الحسن وعرف أصول الدعوة من عبد الملك بن عطاش ـ داعية المذهب في العراق ـ ومن سنة 471هـ وصل إلى مصر، بعد رحلة مليئة بالأخطار هدفه مقابلة المستنصر ـ الإمام الفاطمي ـ وبقي في مصر أكثر من سنة، لم يحظ خلالها بمقابلة الإمام، وغادر مصر في سفينة مع جماعة من الفرنجة، وأدى هياج البحر إلى اتجاه السفينة إلى حلب، ومنها عاد إلى أصفهان، ومنها إلى قلعة آلموت، وطارده نظام الملك الوزير السلجوقي الكبير مؤسس المدارس النظامية التي تحدثنا عنها في كتابنا السلاجقة، وتمكن أنصاره من السيطرة على آلموت ـ أي عش العقاب ـ واستولى على القلعة سنة 483هـ[2]، ولما استقر الحسن الصباح في آلموت أرسل الدعاة إلى الأطراف، وكان الحسن الصباح يدعو إلى نزار بن الخليفة المستنصر، لأن المستنصر قد خلع ابنه الأكبر نزار من ولاية العهد، وأسندها إلى ابنه المستعلي، ورفض الحسن الصباح خلع الابن الأكبر نزار، لأن ذلك يتنافى مع عقائد المذهب الإسماعيلي، الذي يعطي ولاية العهد للابن الأكبر، وكان الحسن الصباح في مصر أثناء خلع المستنصر للابن الأكبر نزار، ولما رفض هذا الإجراء سجن في مصر، ثم غادرها، ودعا إلى نزار في البلاد التي سيطر عليها[3]، وعمل الحسن ابن الصباح على توسيع رقعة دولته بعد وفاة السلطان ملكشاه، وكانت دولة الحسن الصباح على العقيدة الإسماعيلية الشيعية متطرفة في العقيدة، وانحرفوا عن الإسلام الصحيح، وللرد على مزاعم الإسماعيلية الباطنية ألف أبو حامد الغزالي كتابه الموسوم بفضائح الباطنية داحضاً لادعاءاتهم[4]، وقد فصلت الحديث عنه في كتابي عن السلاجقة.

(1) جامع التواريخ(1/ 240) جهاد المماليك ضد المغول، ص: 47.
(2) الدول المستقلة في المشرق، ص: 191.
(3) تاريخ مصر، ابن ميسر، ص: 26 وما بعدها.
(4) دولة السلاجقة، للصلابي، ص: 130.

2 ـ اقتلاع جذور الدولة الإسماعيلية: في ذي الحجة سنة 653هـ / يناير 1256م، أصدر هولاكو أوامره بتوقف جميع السفن والزوارق، وإقامة جسر على نهر جيحون، حيث عبرت قواته النهر متوجهة إلى قلاع الإسماعيلية، ونزل في مرعى شبورقان بالقرب من مدينة بلخ وأمضى هولاكو الشتاء هناك[1]، ثم وصل هولاكو بعد ذلك على رأس الجيش الرئيس إلى قلاع الإسماعيلية الحصينة، واستطاع بالحيلة تارة، وبالقوة تارة أخرى أن يستولى عليها الواحدة تلو الأخرى، حتى انتهى من آخر قلاعهم قلعة آلموت في أواخر سنة 654هـ/ 1257م حيث لم يستطع زعيم الإسماعيلية ركن الدين خوارزمشاه مقاومة هولاكو، فاستسلم له وقبَّل الأرض أمامه، وبذلك تمكن المغول من الاستيلاء على كل قلاع الإسماعيلية التي بلغ عددها نحو المائة، والتي اتخذها هؤلاء الإسماعيليون أوكاراً لهم سنين طويلة، ولم يكتف هولاكو بالاستيلاء على قلاع الإسماعيلية في تلك المناطق، بل طلب من ركن الدين خوارزمشاه تسليم جميع قلاع الإسماعيلية في بلاد الشام، فاستجاب له وراسل مندوبين من قبله إلى بلاد الشام ومعهم رسل هولاكو لدعوة الناس هناك إلى التسليم عندما تصل إليهم الرايات المغولية[2].

خامساً: تحرك الجيوش المغولية نحو بغداد: بعد أن قضى هولاكو على طائفة الإسماعيلية، سار لتحقيق هدفه الثاني، الذي رسمه له أخوه منكو خان، وهو الاستيلاء على بغداد، والقضاء على الخلافة العباسية، التي أدركتها الشيخوخة وظهرت عليها مظاهر الضعف والانهيار، والواقع أن جذور الضعف والتفكك قد امتدت إلى جسم الخلافة العباسية قبل مجيء المغول بمدة طويلة بسبب عوامل كثيرة ذكرنا بعضها في ما مضى، وسنذكر البعض الآخر بإذن الله تعالى. لقد تفككت الروابط القوية التي كانت تربط الخلافة العباسية بمختلف الأمصار الإسلامية، حيث نشأت دول عديدة وإمارات مستقلة في قلب الخلافة العباسية وأطرافها، وعندما بدأ المغول زحفهم على الممالك الإسلامية في الشرق كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو المستعصم بالله(640/ 1242م ـ 656هـ/ 1258م)[3].

1 ـ سير الحملة إلى بغداد: بعد أن حقق هولاكو خان هدفه الأول، وهو القضاء على طائفة الإسماعيلية، سار لتحقيق هدفه الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية،

(1) جهاد المماليك، للغامدي، ص: 48، نقلاً عن: جامع التواريخ.
(2) المصدر نفسه، ص: 49.
(3) جهاد المماليك، ص: 50.

وفي رمضان سنة (655هـ/ 1257م) أرسل هولاكو رسولاً إلى الخليفة مصاغة في قالب من التهديد والوعيد جاء فيها: لقد أرسلنا إليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة وطلبنا مدداً من الجند، ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند، وكانت آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة، فلم ترسل إلينا الجند والتمست العذر، ولا بد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام، ما حل بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولي، منذ عهد جنكيز خان[1]، إلى اليوم، والذي حاق بأسر الخوارزمية والسلجوقية وملوك الديالمة والأتابكية وغيرهم ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة، وذلك بحول الله القديم الدائم، ولم يكن باب بغداد مغلقاً في وجه أية طائفة من تلك الطوائف، واتخذوا منها قاعدة ملكاً لهم، فكيف يغلق في وجهنا رغم مالنا من قدرة وسلطان؟ ولقد نصحناك من قبل، والآن نقول لك: احذر الحقد، والخصام ولا تضرب المخصف بقبضة يدك، ولا تلطخ الشمس بالوحل فتتعب، ومع هذا فقد مضى ما مضى، فإذا أطاع الخليفة، فليهدم الحصون ويردم الخنادق، ويسلم البلاد لابنه، ويحضر لمقابلتنا، وإذا لم يرد الحضور فيرسل كلاً من الوزير وسليمان شاه، والدويدار، ليبلغوه رسالتنا دون زيادة أو نقصان، فإذا استجاب لأمرنا فلن يكن واجبنا أن نكن له الحقد، وسنبقي له على دولته وجيشه ورعيته، أما إذا لم يصغ إلى النصح وآثر الخلاف والجدال، فليعين الجند وليعين ساحة القتال، فإننا متأهبون لمحاربته وواقفون له على استعداد، وحينما أقود الجيوش إلى بغداد، مندفعاً بثورة الغضب، فإنك لو كنت مختفياً في السماء أو في الأرض... فسوف أنزلك من الفلك الدوار، وسوف ألقيك من عليائك إلى أسفل كالأسد، ولن أدع حياً في مملكتك، وسأجعل مدينتك وإقليمك وأراضيك طعمة للنار، فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بسمع العقل والذكاء، وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله[2].

ورفض المستعصم بشدة ورد على هولاكو برسالة كلها احتقار قال فيها: أيها الشاب الحدث... المتمني قصر العمر، ومن ظن نفسه محيطاً ومتغلباً على جميع العالم مغتراً في يومين من الإقبال، متوهماً أن أمره قضاء مبرم، وأمر محكم، لماذا تطلب مني شيئاً لن تجده؟ ألا يعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب وأنه من الملوك إلى الشحاذين ومن الشيوخ إلى الباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود

(1) جهاد المماليك، ص: 54.
(2) جامع التواريخ نقلاً عن: المغول، للصياد، ص: 256.

لي؟ إنني حينما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور في إيران ثم أتوجه منها إلى بلاد توران، وأضع كل شخص في موضعه، وعندئذ سيصير وجه الأرض مملوءاً بالقلق والاضطراب، غير أني لا أريد الحقد والخصام ولا أن أشتري ضرر الناس وإيذائهم، كما أنني لا أبغي من وراء تردد الجيوش أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح أو القدح، خصوصاً وأنني مع الخاقان هولاكو خان قلب واحد ولسان واحد، وإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم، فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان، وإن كنت تريد الحرب والقتال، فلا تتوان لحظة ولا تعتذر، إذا استقر رأيك على الحرب، إن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة وهم متأهبون للقتال، وإنهم ليثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان[1].

وصل رسل الخليفة إلى هولاكو، فلما اطلع هذا على رسالة الخليفة، وعلم بما لحق رسله من أذى العامة في بغداد، غضب غضباً شديداً، وأعاد رسل المستعصم، وحملهم رسالة أخرى تتضمن إنذاراً نهائياً له، صيغ في لهجة شديدة عنيفة، إذ يقول: لقد فتنك حب الجاه والمال، والعجب والغرور بالدولة الفانية، بحيث أنه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير، وإن في أذنيك وقراً فلا تسمع نصح المشفقين، ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك، وإذن فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد، ولو جرى سيل الفلك على شاكلة أخرى فتلك هي مشيئة الله العظيم[2]. وقبل أن يقدم هولاكو على غزو بغداد، استشار المنجمين، فيما يتعلق بأحكام النجوم وطوالع السعد والنحس، أما الفلكي حسام الدين الذي جاء برفقة هولاكو من قبل خان المغول الأعظم «منكوقاآن» فقد كان سنياً يعطف على الخليفة العباسي ويحرص على أن يمنع هولاكو من الإقدام على غزو بغداد، فراح يؤكد له أن هذه الحملة تحدث خللاً في نظام الكون، فضلاً على أنها سوف تكون وبالاً على الخان نفسه، فكان مما قاله له: الحقيقة أن كل ملكٍ تجاسر ـ حتى هذه اللحظة ـ على قصد الخلافة والزحف بالجيش على بغداد لم يبق له العرش ولا الحياة، وإذا أبى الملك أن يستمع إلى نصائحي، وتمسك بمشروعه فسينتج عنه ستة مصائب كبيرة:

ـ تموت الخيول كلها، ويمرض الجنود.

ـ لن تطلع الشمس.

---

(1) وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، محمد ماهر حمادة، ص: 347.

(2) جامع التواريخ، نقلاً عن: المغول، للصياد، ص: 256.

- لن ينمو النبات في الأرض.
- لن ينزل المطر.
- تهب رياح شديدة، ويعاني العالم من الزلازل.
- يموت الخان الأعظم في هذا العام[1].

وأما الأمراء فقد قالوا: إن الذهاب إلى بغداد هو عين المصلحة، وبعد ذلك استدعى هولاكو خان «نصير الدين الطوسي» لاستشارته، ولما كان يكره الخليفة، ويعمل على إسقاطه، فقد نقض كل ما قاله حسام الدين، وطمأن هولاكو بأنه لا توجد موانع تحول دون إقدامه على الغزو، ولم يقف عند هذا الحد، بل أخذ يؤيد وجهة نظره بالحجج القوية التي تكذب نبوءة حسام الدين، فذكر أن الكثيرين من أصحاب الرسول ﷺ ماتوا في الدفاع عن الدين، ومع ذلك لم تقع أية كارثة، وإذا قيل أن ذلك خاص ببني العباس، فإن الكثير من الناس قد خرجوا على هذه الأسرة وقتلوا منهم بعض الخلفاء، دون أن يحدث أي خلل، وأخذ نصير الطوسي يتمثل بطاهر بن الحسين قاتل المأمون الذي قتل محمد الأمين، وبالأمراء الذين قتلوا المتوكل والمنتصر والمعتز وغيرهم[2].

2 - حصار بغداد: وعلى إثر ذلك أصدر هولاكو أمره بأن تتحرك جيوش المغول من أطراف بلاد الروم عن طريق إربل والموصل متجهة نحو بغداد لتحاصرها من الجهة الغربية، وتنتظر حتى تصل إليهم جيوش هولاكو من الناحية الشرقية، أما كيتوبوقا أحسن قواد هولاكو فقد اتجه بالجناح الأيسر إلى العاصمة العباسية عن طريق لورستان، وخوزستان، كما أنفذ إليها بعض أمراء المغول عن طريق كروستان الحالية، وفي أوائل المحرم سنة 625هـ/ 1257م نزل هولاكو من همذان إلى دجلة عن طريق كرمانشاه وحلوان، وكان معه في تلك الغزوة الأمير أرغون والخواجة نصير الدين الطوسي والوزير سيف الدين البنكجي[3]، وعلاء الدين عطاء الجويني، وقد استطاع هولاكو أن يستميل إلى جانبه سكان الأماكن الجبلية المتاخمة للعراق بواسطة الأموال التي كان يبذلها لهم، كما استطاع أن يضم إليه الكثير من جنود سليمان شاه[4]. وكان بدر الدين

(1) المغول، ص: 259.
(2) المصدر نفسه، ص: 260.
(3) المصدر نفسه، ص: 260.
(4) المصدر نفسه، ص: 261.

لؤلؤ صاحب الموصل، والأتابك أبو بكر في إقليم فارس ممن أمدوا هولاكو بالمال والرجال، ولما انتهى حشد القوات المغولية وأقام هولاكو معسكره في ظاهر بغداد من الرق، حاول الجيش الذي أعده الخليفة بقيادة مجاهد الدين آيبك الدويدار الصغير أن يحول دون استقرار المغول في أماكنهم، فكان نصيبه الهزيمة المنكرة، وقتل عدد كبير من الجنود لقوا حتفهم على يد المغول، فلم يسع مجاهد الدين إلا الحرب مع قليل من أتباعه، وفي يوم الثلاثاء 22 من المحرم 656هـ/ 1258م أحكم الحصار حول مدينة بغداد، واستمر حتى نهاية هذا الشهر، وفي خلال تلك الفترة كان المغول يطلقون يد التخريب في المدينة، ويفتحون الأبراج حتى استولوا بهجماتهم على القسم الشرقي من التحصينات[1].

3 ـ **مفاوضات النهاية:** ولما رأى الخليفة حرج موقفه، أراد أن يهادن المغول ويثنيهم عن عزمهم على إتمام الفتح وذلك بإرسال الرسل والهدايا، ولكن هولاكو لم يستجب لهذا النداء[2]، ولجأ الخليفة إلى صديقه مؤيد الدين العلقمي الشيعي وسأله: ماذا يفعل؟ وأشار إليه الوزير أن يخرج لمقابلة هولاكو بنفسه لكي يجري معه مفاوضات، وذهب الرسل إلى هولاكو تخبره بقدوم الخليفة، فأمر هولاكو أن يأتي الخليفة ولكن ليس وحده، بل عليه أن يأتي معه بكبار رجال دولته، ووزرائه وفقهاء المدينة، وعلماء الإسلام، وأمراء الناس والأعيان، حتى يحضروا جميعاً المفاوضات وبذلك تصبح المفاوضات ـ كما يزعم هولاكو ـ ملزمة للجميع، وجمع الخليفة كبار قومه، وخرج بنفسه في وفد مهيب إلى خيمة هولاكو خارج الأسوار الشرقية لبغداد، خرج وقد تحجرت الدموع في عينيه، وتجمدت الدماء في عروقه، وتسارعت ضربات قلبه، وتلاحقت أنفاسه، لقد خرج الخليفة ذليلاً مهيناً، وهو الذي كان يستقبل في قصره وفود الأمراء والملوك، وكان أجداده الأقدمون يقودون الدنيا من تلك الدار التي خرج منها الخليفة الآن، وكان الوفد كبيراً يضم سبعمائة من أكابر بغداد، وكان فيهم بالطبع وزيره مؤيد الدين العلقمي، واقترب الوفد من خيمة هولاكو، ولكن قبل الدخول على زعيم التتار اعترض الوفد فرقة من الحرس الملكي التتاري، ولم يسمحوا لكل الوفد بالدخول على هولاكو بل قالوا: إن الخليفة سيدخل ومعه سبعة عشر رجلاً فقط، أما الباقون فسيخضعون ـ كما يقول الحرس ـ للتفتيش الدقيق، ودخل الخليفة ومعه رجاله

(1) المغول، للصياد، ص: 262.
(2) المصدر نفسه، ص: 262.

وحجب عنه بقية الوفد، ولكنه لم يخضعوا لتفتيش أو غيره، بل أخذوا جميعاً... للقتل!! قتل الوفد بكامله إلا الخليفة والذين كانوا معه، قتل كبراء القوم، ووزراء الخليفة، وأعيان البلد، وأصحاب الرأي، وفقهاء وعلماء الخلافة العباسية، ولم يقتل الخليفة لأن هولاكو كان يريد استخدامه في أشياء أخرى، وبدأ هولاكو يصدر الأوامر في عنف وتكبر واكتشف الخليفة أن وفده قد قتل بكامله وعرف أن التتار وأمثالهم لا عهد لهم ولا أمان ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة، الآية: 10]. وصدرت الأوامر من هولاكو إلى الخليفة:

أ - على الخليفة أن يصدر أوامره لأهل بغداد بإلقاء أي سلاح، والامتناع عن أي مقاومة، وقد كان ذلك أمراً سهلاً، لأن معظم سكان المدينة لا يستطيعون حمل السلاح، ولا يرغبون في ذلك أصلاً.

ب - يقيد الخليفة العباسي، ويساق إلى المدينة، يرسف في أغلاله، وذلك لكي يدل التتار على كنوز العباسيين، وعلى أماكن الذهب والفضة والتحف الثمينة وكل ما له قيمة نفيسة في قصور الخلافة وفي بيت المال[1].

جـ - يتم قتل ولدي الخليفة أمام عينيه، فقتل الولد الأكبر أحمد أبو العباس وكذلك قتل الولد الأوسط عبد الرحمن أبو الفضائل... ويتم أسر الثالث مبارك أبو المناقب، كما يتم أسر أخوات الخليفة فاطمة وخديجة ومريم.

د - أن يستدعي من بغداد بعض الرجال بعينهم وهؤلاء هم الرجال الذين ذكر ابن العلقمي أسماءهم لهولاكو، وكانوا من علماء السنة، وكان ابن العلقمي يكن لهم كراهية شديدة، وبالفعل تم استدعاؤهم جميعاً فكان الرجل منهم يخرج من بيته ومعه أولاده ونساؤه فيذهب إلى مكان خارج بغداد عينه التتار بجوار المقابر، فيذبح العالم كما تذبح الشاة، وتؤخذ نساؤه وأولاده إما للسبي أو للقتل، لقد كان الأمر مأساة بكل المقاييس وذبح على هذه الصورة أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف بن الشيخ بن الفرج بن الجوزي، وذبح أولاده الثلاثة عبد الله، عبد الرحمن، وعبد الكريم، وذبح المجاهد مجاهد الدين آيبك وزميله سليمان شاه اللذان قادا الدعوة إلى الجهاد في بغداد، وذبح شيخ الشيوخ ومؤدب الخليفة ومربيه صدر الدين علي بن النيار، ثم ذبح بعد

(1) قصة التتار، ص: 149، 150.

هؤلاء خطباء المساجد والأئمة وحملة القرآن، وكل هذا والخليفة حي يشاهد، ورأى أن هولاكو يتعامل تعاملاً ودياً مع ابن العلقمي الوزير الخائن وأدرك بوضوح العلاقة بينهما وانكشفت أمامه الحقائق بكاملها، وعلم النتائج المترتبة على توسيد الأمر لغير أهله، ولكن بعد فوات الأوان[1].

4 ـ استباحة بغداد: بعد أن ألقى أهل المدينة السلاح وبعد أن قتلت هذه الصفوة، وبعد أن انساب جند هولاكو إلى شوارع بغداد ومحاورها المختلفة، أصدر هولاكو أمره الشنيع باستباحة بغداد[2]، وأتوا على كل ما فيها، فخربوا المساجد بقصد الحصول على قبابها المذهبة، وهدموا القصور بعد أن سلبوا ما بها من تحف نادرة وأباحوا القتل والنهب وسفك الدماء، وكان استهتار المغول بالنفوس بالغاً حد الفظاعة، فيروى أن أحدهم دخل زقاقاً، وقتل أربعين طفلاً شفقة منه ورحمة حين علم أن أمهاتهم قتلن من قبل[3]، ويقدر المعتدلون من المؤرخين عدد القتلى بنحو ثمانمائة ألف نسمة[4]، ولم يقتصر التتار على قتل الرجال الأقوياء فقط، وإنما كانوا يقتلون الكهول والشيوخ، وكانوا يقتلون النساء إلا من استحسنوه منهن، فإنهن كانوا يأخذونها سبياً[5]، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة، وقد استمرت هذه الغارة أربعين يوماً، اندلعت فيها ألسنة النيران في كل جانب، فالتهمت كل ما صادفها، وأتت على الأخضر واليابس، وخربت أكثر الأبنية وجامع الخليفة، ومشهد الإمام موسى الكاظم، وقبور الخلفاء في الرصافة[6]، وعندما دخل هولاكو مدينة بغداد، قصد قصر الخلافة، وجلس في الميمنة، واحتفل مع الأمراء بذلك اليوم، وأمر بإحضار الخليفة، وقال له: أنت المضيف ونحن الضيوف فيجب عليك أن تقوم بواجب الضيافة، فصدق الخليفة قوله، وكان يرتعد فرقاً وخوفاً واستولت عليه الدهشة واعتراه الذهول، لدرجة أنه لم يعد يعرف أين وضع مفاتيح خزائنه، فأمر بكسر الأقفال، وإخراج ألفين من الثياب، وعشرة آلاف دينار، ونفائس ومرصعات، وجواهر عديدة، قدمها هدية لهولاكو خان الذي لم يعر

(1) قصة التتار، ص: 151.
(2) المصدر نفسه، ص: 151.
(3) المغول، للصياد، ص: 265.
(4) دول الإسلام الذهبي (2 ـ 123)، المغول، للصياد، ص: 265.
(5) قصة التتار، ص: 265.
(6) بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشير فرنسيس، ص: 292 ـ 293.

تلك الأشياء التفاتاً، ووزعها على أتباعه، ثم قال للخليفة: هذه الأموال التي تملكها على سطح الأرض أمرها واضح، وهذه تعد غنيمة، فتكون من نصيب جنودنا، والآن نريد أن تكشف لنا عن الأموال والدفائن، فما هي وأين توجد؟ عندئذ اعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب وسط القصر، فلما حفروا ذلك المكان وجدوه مملوءاً بالذهب الإبريز، وكانت كل قطعة منه تزن مائة مثقال، ثم أمر هولاكو بأن يحصوا حرم الخليفة وحاشيته، فوجدوا سبعمائة من النساء والسرايا وألفاً من الخدم[1]، وعندما وقف الخليفة على تعداد نسائه قال في تضرع: امنحني تلك النسوة اللائي لم يكن يطلع عليهن ضوء الشمس ولا نور القمر، فأمر هولاكو بأن يختار من بينهن مائة من النسوة ممن هن من أقاربه والمحببات إليه، ثم رجع إلى معسكره ليلاً وفي الصباح كلف قائده «سونجاق» بأن يذهب إلى المدينة ليضبط أموال الخليفة ويخرجها، فجمع هذا كل ما كان الخلفاء العباسيون قد ادخروه خلال خمسة قرون[2]. وأخيراً بعد أن سفك هولاكو من الدماء ما سفك، وبعد أن خرب ما خرب، أصدر أمره بالكف عن القتل، وبأن ينصرف كل إلى عمله، يقول ابن كثير: ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، ولقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد، فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى[3].

5 ـ مقتل الخليفة المستعصم بالله: عامل هولاكو الخليفة معاملة سيئة للغاية، بحيث أنه حرم عليه الطعام، فلما أحس الخليفة بالجوع طلب طعاماً، فقدم له هولاكو طبقاً مملوءاً بالذهب، وأمره أن يأكل، فقال الخليفة: كيف يمكن أكل الذهب؟... فرد عليه هولاكو: إذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل فلماذا احتفظت به ولم توزعه على جنودك حتى يصونوا لك ملكك الموروث من هجمات هذا الجيش المغير؟ ولم لم تحول تلك الأبواب الحديدية إلى سهام، وتسرع إلى شاطئ نهر جيحون لتحول دون عبوري؟... فأجاب الخليفة: هكذا كان تقدير الله[4]. فقال هولاكو: وما سوف يجري عليك إنما هو كذلك تقدير الله. وفي رواية أخرى: أن هولاكو عندما وجه هذه الأسئلة إلى الخليفة لزم

(1) تاريخ مختصر الدول، ص: 271، المغول، ص: 266.

(2) جامع التواريخ، ص: 300 ـ 302، المغول، للصياد، ص: 266.

(3) المغول، للصياد، ص: 266، البداية والنهاية (13/ 203).

(4) المغول، ص: 267، للصياد.

الصمت ولم يحر جواباً[1]. وأما عن الكيفية التي قتل بها المستعصم، فإنها لازالت مسألة يكتنفها الغموض، إذ تضاربت فيها روايات المؤرخين، ولعل أبا الفداء يمثل لنا اختلاف الروايات بخصوص قتل المستعصم تمثيلاً واضحاً حين قال: ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله، فقيل: خنق، وقيل: وضع في عدل ورفسوه حتى مات، وقيل: غرق في دجلة، ويختم عبارته بقوله: والله أعلم بحقيقة ذلك[2]، واشتهرت بين المؤرخين قتل المستعصم في غرارة ثم رفسه إلى أن مات. والسؤال المطروح: لمَ اختار هولاكو هذه الطريقة في قتل المستعصم؟ قيل في تبرير ذلك أمور منها:

أ - شق على مستشاري هولاكو خان من المسلمين أن يراق دم الخليفة وهو أمير المؤمنين وزعيمهم الديني فحذروا الخان المغولي أن يقدم على تلك الفعلة، حتى أنهم ليرون أن أحد المنجمين قال لهولاكو: إذا قتل الخليفة، فإن العالم يصير أسوداً مظلماً وتظهر علامات القيامة[3]، وفي هذه المرة أيضاً نفى نصير الدين الطوسي هذا الادعاء وأيد رأيه ببراهين عملية تثبت أن عدة خلفاء من بني العباس قتلوا ولم يحدث خلل يذكر، فلما صمم هولاكو على قتله، احترز من أن يريق دمه فقتله بالطريقة السالفة الذكر.

ب - قتل هولاكو المستعصم دون أن يريق دمه، لا خوفاً من تحذير العلماء المسلمين وإنما جرياً على عادة المغول، كما أشار إلى ذلك النويري إذ يقول: وجيء بالخليفة إلى هولاكو فأمر أن يجعل في جولق ويداس بأرجل الخيل، ففعل به ذلك حتى مات، كما ذكرناه في أخبار الدولة العباسية، ومن عادة التتار أنهم لا يسفكون دماء الملوك والأكابر غالباً[4]. ويقول ابن خلدون: وقبض على المستعصم فشدخ بالمعاول في عدل تجافياً عن سفك دمه بزعمهم[5]. كان جنكيز خان يمارس تقاليد قومه التي كانت تحرم إراقة دم زعيم أي قبيلة يجري في عروقه الدم الملكي ويستعملون طريقة خمد الأنفاس تحت ضغط أقمشة ثقيلة.

(1) المغول، للصياد، ، ص: 267.
(2) المختصر في أخبار البشر (3/ 203)، المغول، ص: 268.
(3) مجالس المؤمنين، ص: 400، للششتري، المغول، للصياد، ص: 269.
(4) نهاية الأرب في فنون الأدب، نقلاً عن: المغول، ص: 269.
(5) العبر وديوان المبتدأ والخبر (5/ 543).

وعلى هذا يبدو أن السبب الثاني هو الأرجح، لأن المغول حتى في دفنهم للمستعصم، جروا على سننهم وتقاليدهم، إذ دفنوه في مكان مجهول، لدرجة أن السيوطي ينقل عن الذهبي قوله: وما أظنه دفن، ويقول ابن الغوطي: أمر السلطان ـ أي هولاكو ـ بقتله، فقتل يوم الأربعاء الرابع عشر صفر ولم يهرق دمه، بل جعل في غرارة ورفس حتى مات ودفن وعفي أثر قبره[1]. والمعروف في سلاطين المغول وأمرائهم أنهم كانوا يدفنون موتاهم في موضع بعيد عن العمران، ويجعلون قبورهم من الأسرار المخفية، وهكذا ظل المغول محافظين على هذا التقليد حتى جاء السلطان غازان خان (694 ـ 703هـ) واعتنق الإسلام، فأبطل هذه العادة، وبنى لنفسه مقبرة كبيرة لتكون مقر دفنه، فكان بذلك أول سلطان من سلاطين المغول، يدفن في مقبرة ظاهرة[2].

6 ـ الخراب الحضاري: بعد أن أتم هولاكو وجيشه المغولي التتاري، قتل أهالي بغداد، وهدم عمرانها ومعالمها الحضارية ووسائل تلك الحضارة الإنسانية، فأمر هولاكو قادته وجيوشه بعد القتل والذبح، نهب بغداد، فعاث جند المغول والتتار فساداً في المدينة التي ما كفوا عن ضربها بالمنجنيقات إلا بعد أن رأوا أكثر مساكنها وأسواقها أصبحت ركاماً، حتى المساجد والجوامع والمدارس والمكتبات، وأشعلوا النيران فيها أيضاً، بحيث ظلت النيران تتأجج ليالي عديدة تسطع وهاجة في حلك الظلام، وقد نهب المغول كل التراث الذي امتلكه الخلفاء العباسيون وأهالي بغداد من أثاث وسجاد وأقمشة من حرير وأقطان وكتان، وقساطيط، وسروج الخيل وأفرشة وبسط، «ودام القتل والنهب أربعين يوماً»[3] وبعد هذه الأربعين يوماً من التخريب والتمزيق أصبحت بغداد في حالة من الدمار والخراب لا تصدقها العيون، حدثنا أحد العلماء الذين زاروها بعد تلك الكارثة الكبرى فقال: وافيتها بلدة خالية، وأمة بالية، ودمنة حائلة، ومحنة جائلة، وقصوراً خاوية، وعراصاً باكية، وقد رحل عنها سكانها وبات عنها قطانها، وتمزقوا في البلاد، ونزلوا بكل وادٍ، وقصورها المشيدة مهدومة، ونعماؤها مسلوبة معدومة، موحشة لفقد قطانها باكية، تسفي عليها الرياح السافية، فهل نرى لهم من باقية؟ فوقفت أبكيها، أندب ربوعها ومن كان فيها:

وأنـــدب أطـــلالـــهـــا تـــارة وأبـكـي عـلـى فـرقـة الـظـاعـنـيـنـا

(1) المغول، للصياد، ص: 270.
(2) المصدر نفسه، ص: 270.
(3) مآثر الإنافة في معالم الخلافة (2/ 91).

فلو ذهبت مقلة بالبكاء لفرط الغرام لكنا عمينا[1]

وقد استهدفت مكتبة بغداد العظيمة وهي أعظم مكتبة على وجه الأرض في ذلك الزمان، وهي الدار التي كانت تحوي عصارة فكر المسلمين في أكثر من ستمائة عام، جمعت فيها كل العلوم والآداب والفنون وعلوم شرعية كتفسير القرآن أو الحديث والفقه والعقيدة، والأخلاق ومن علوم حياتية، كالطب والفلك والهندسة والكيمياء والفيزياء والجغرافيا وعلوم الأرض، ومن علوم إنسانية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب والتاريخ والفلسفة، وغير ذلك، هذا بالإضافة إلى ملايين الأبيات من الشعر، وعشرات الآلاف من القصص والنثر، فإن أضفت إلى كل ما سبق الترجمات المختلفة لكل العلوم الأجنبية سواء اليونانية أو الفارسية أو الهندية أو غير ذلك، علمت حجم الخسارة الحضارية التي منيت بها الإنسانية، لقد كانت مكتبة بغداد مكتبة عظيمة بكل المقاييس ولم يقترب منها في العظمة إلا مكتبة قرطبة الإسلامية في الأندلس، وسبحان الله لقد مرت مكتبة قرطبة بنفس التجربة التي مرت بها مكتبة بغداد، وعندما سقطت قرطبة في يد نصارى الأندلس سنة 636هـ قبل سقوط بغداد بعشرين سنة فقط قاموا بحرق مكتبة قرطبة تماماً، وقام بذلك أحد قساوسة النصارى بنفسه، وكان اسمه «كمبيس» وحرق ما وقعت عليه يده، من كتب بذلت فيها آلاف الأعمار وأنفق في سبيل كتابتها الكثير من المال والعرق والجهد[2].

كانت مكتبة بغداد أسسها الخليفة العباسي هارون الرشيد، والذي حكم الدولة الإسلامية من سنة 170هـ إلى سنة 193هـ، ثم ازدهرت المكتبة جداً في عهد المأمون خليفة المسلمين من سنة 198هـ إلى 218هـ، وما زال الخلفاء العباسيون بعدهم يضيفون إلى المكتبة الكتب والنفائس حتى صارت داراً للعلم، لا يتخيل كم العلم بداخلها، وقد حوت ملايين المجلدات وملايين الكتب في مكتبة واحدة في زمانٍ ليس فيه طباعة، وكانت مكتبة بغداد تشتمل على عدد ضخم من الحجرات، وقد خصصت كل مجموعة من الحجرات لكل مادة من مواد العلم، فهناك حجرات لكتب الفقه، وحجرات لكتب الطب، وأخرى لكتب الكيمياء ورابعة للبحوث السياسية، وكان في المكتبة المئات من الموظفين الذين يقومون على رعايتها ويواظبون على استمرار تجديدها، وكان هناك «النساخون» الذين ينسخون من كل كتاب أكثر من نسخة، وكان هناك «المناولون» الذين

(1) بغداد مدينة السلام وغزو المغول، ص: 255.
(2) قصة التتار، ص: 159.

يناولون الناس الكتب من أماكنها المرتفعة، وكان هناك «المترجمون» الذين يترجمون الكتب الأجنبية، وكان هناك «الباحثون» الذين يبحثون لك عن نقطة معينة من نقاط العلم في هذه المكتبة الهائلة، وكانت هناك غرف خاصة للمطالعة، وحلقات النقاش والندوات العلمية وغرف خاصة للترفيه والأكل والشرب، ومكان إقامة لطلاب العلم الذين جاءوا من مسافات بعيدة، لقد حوت هذه المكتبة عصارة الفكر الإنساني، وكان المأمون يشترط على ملك الروم في معاهداته معه بعد انتصارات المأمون المشهورة عليه أن يسمح للمترجمين المسلمين بترجمة الكتب التي في مكتبة القسطنطينية، وكان لخلفاء بني العباس موظفون يجوبون الأرض بحثاً عن الكتب العلمية بأي لغة لتترجم وتوضع في مكتبة بغداد بعد أن يتولاها علماء المسلمين المتخصصون بالنقد والتحليل، لقد ترجمت في مكتبة بغداد الكتب المكتوبة باللغات اليونانية والسريانية والهندية والسنسكرتية والفارسية واللاتينية وغيرها[1].

ماذا فعل التتار مع مكتبة بغداد الهائلة؟ حمل التتار الكتب الثمينة، ملايين الكتب القيمة، وألقوا بها جميعاً في نهر دجلة، وألقى المغول بمجهود القرون الماضية في نهر دجلة، وتحول لون المياه إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب حتى قيل أن الفارس المغولي كان يعبر فوق المجلدات الضخمة من ضفة إلى ضفة أخرى، وهذه جريمة في حق الإنسانية، وتكررت عبر التاريخ في الأندلس في مكتبة قرطبة وغرناطة وطليطلة وأشبيلية وبلنسية وسرقسطة وغيرها، وفي مكتبة طرابلس اللبنانية فأحرقوا ثلاثة ملايين كتاب، وفعلها الصليبيون والنصارى في فلسطين، في مكتبة غزة والقدس وعسقلان، ثم فعلها بعد ذلك المستعمرون الأوروبيون الجدد والذين نزلوا إلى بلاد العالم الإسلامي في القرن التاسع، ولكن هؤلاء كانوا أكثر ذكاء، فإنهم سرقوا الكتب ولم يحرقوها، ولكن أخذوها إلى أوربا، ومازالت المكتبات الكبرى في أوروبا تحوي مجموعة من أعظم كتب العلم في الأرض، ألفها المسلمون على مدار عدة قرون متتالية، ولا يشك أحد في أن أعداد الكتب الأصلية الإسلامية في مكتبات أوروبا تفوق كثيراً أعداد هذه المراجع الهامة في بلاد المسلمين أنفسهم. لقد كان هم الغزاة على طول العصور أن يحرموا هذه الأمة من اتصالها بأي نوع من أنواع العلوم، إما بحرق الكتب أو بإغراقها في الأنهار أو بسرقتها أو بتغيير مناهج التعليم ـ حالياً ـ حتى تفرغ

(1) قصة التتار، ص: 161.

من كل ما هو قيم وثمين، كل ذلك لأن الغزاة يعرفون جيداً قيمة العلم في دين الإسلام، ويعرفون قيمة المسلمين إذا ارتبطوا بالعلم[1]، وبعد أن فرغ المغول من تدمير مكتبة بغداد انتقلوا إلى الديار الجميلة، وإلى المباني الأنيقة فتناولوا جلها بالتدمير والحرق، وسرقوا المحتويات الثمينة فيها، أما ما عجزوا عن حمله من المسروقات فقد أحرقوه وظلوا كذلك حتى تحولت معظم ديار المدينة إلى ركام، وإلى خراب تتصاعد منه ألسنة النار والدخان، واستمر هذا الوضع الأليم أربعين يوماً كاملة وامتلأت شوارع بغداد بتلال الجثث المتعفنة واكتست الشوارع باللون الأحمر، وخاف هولاكو على جيشه من انتشار الأوبئة المتعفنة فأصدر هولاكو بعض الأوامر الجديدة:

أ - يخرج الجيش التتاري بكامله من بغداد وينتقل إلى بلد آخر في شمال العراق، لكي لا يصاب الجيش بالأمراض والأوبئة وتترك حامية تتارية صغيرة حول بغداد، فلم يعد هناك ما يخشى منه في هذه المنطقة.

ب - يعلن في بغداد أمان حقيقي، فلا يقتل مسلم بصورة عشوائية بعد هذه الأربعين، ليقوموا بدفن موتاهم، وتنظيف المدينة من الجثث.

جـ - أصدر هولاكو قراراً بأن يعين مؤيد الدين العلقمي الشيعي رئيساً على مجلس الحكم المعين من قبل المغول على بغداد على أن توضع عليه بالطابع وصية مغولية[2].

7 ـ مؤيد الدين العلقمي، حاكم بغداد: لم يكن مؤيد الدين إلا صورة للحاكم فقط، وكانت القيادة الفعلية للمغول، وتعرض للإهانة من قبلهم لتحطيم نفسيته ولكي يصبح تابعاً ذليلاً لهم، وحصل له من الإهانة في أيامه والقلة والذلة، وزوال ستر الله، ما لا يحد ولا يوصف، رأته امرأة وهو راكب في أيام التتار برذوناً وسائق يضرب فرسه فوقفت إلى جانبه وقالت: يا بن العلقمي هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟ فوقعت كلمتها في قلبه وانقطع في داره إلى أن مات كمداً في مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وله من العمر ثلاث وستون سنة، ودفن في قبور الشيعة، وقد سمع بأذنيه ورأى بعينيه من الإهانة من التتار والمسلمين ما لا يحد ولا يوصف. وتولى بعده ولده الوزارة، ثم أخذه الله إليه سريعاً، وقد هجاه بعض الشعراء فقال:

يا فِرْقة الإسلام نوحوا واندبوا أسفاً على ما حل بالمستعصم

(1) قصة التتار، ص: 163.

(2) المصدر نفسه، ص: 163.

دست الوزارة كان قبل زمانه لابن الفرات فصار لابن العلقمي[1]

8 ـ حكومة هولاكو (الحكومة الإيلخانية بالعراق): بعد سقوط بغداد باشر هولاكو بتدعيم سلطته في العراق وتنظيم الإدارة فيها، فأرسل قوات عسكرية نحو الفرات الأوسط، واستقبلهم السكان في الحلة والكوفة، ونصبوا لهم جسوراً للعبور، ومن هناك انحدرت تلك الفرقة العسكرية نحو واسط، وكان فيها جمع من بقايا عسكر المماليك، فاشتبكوا معهم في قتال شديد انتهى بتصفية عساكر المماليك وقتل عدد كبير من سكان المدينة، وبعد ذلك سار عسكر المغول نحو خوزستان، وهم يتعقبون فلول المماليك الهاربين، وانتهت تلك العمليات بالقضاء على أكثرية المماليك بينما استسلم الباقون.

في تلك الأثناء أقر هولاكو أسس إدارة العراق التي تركها بيد العراقيين، إذ لم يدخل تعديلات كبيرة على إدارة البلاد عدا الإدارة العسكرية وواجبات الشرطة، التي سلم أمرها إلى علي بهادر الخراساني الذي عينه بمنصب الشحنة «ما يقابل الحاكم العسكري»، وقد أبقى هولاكو على مؤسسة الديوان وأقر فخر الدين ابن الدامغاني في منصب صاحب الديوان، وأبقى كذلك على منصب الوزارة، وأقر الوزير المستعصم مؤيد الدين بن العلقمي الأسدي في ذلك المنصب، غير أن أيام هذا الوزير لم تطل بعد تلك النكبة، إذ اعتلت صحته وغلب عليه الحزن والكآبة حتى توفي في مستهل جمادى الثانية من تلك السنة، أي بعد سقوط بغداد بثلاثة أشهر تقريباً، فخلفه في منصب الوزارة ولده عز الدين أبو الفضل، وجرى تقسيم العراق إلى خمس مناطق إدارية بدلاً من سبعة، كان يدير كل منطقة منها مسؤول بمنصب «الصدر»، كان يرتبط به عدد من النواب والنظار، وكانت المناطق كما يلي:

- الأعمال الشرقية، وكانت تشمل الخالص والبندنيجين وطريق خراسان.
- الأعمال الفراتية.
- الأعمال الكوفية والحلية.
- الأعمال البصرية والواسطية.
- أعمال دجيل والمستنصرية.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ذلك التقسيم كان يتلاءم مع التقسيم الجغرافي للمناطق الزراعية في العراق.

(1) البداية والنهاية (17/ 380).

وعين هولاكو نجم الدين أحمد بن عمران صدراً للأعمال الشرقية، وكان من أهل باجسري[1]، وتاج الدين علي بن الدوامي صدراً للأعمال الفراتية، وكان يشغل في عهد المستعصم منصب صاحب الباب، وعز الدين بن أبي الحديد، لمنصب كاتب السلة، غير أن أيامه هو الآخر لم تطل، فقد توفي بعد فترة قصيرة، وكان كاتب السلة يرتبط بصاحب الديوان، وبحكم وظيفته يطلع على أسرار إدارة الدولة وقد اكتسبت كتابة السلة أهمية كبيرة في العهد الإيلخاني حتى صار يطلق على صاحبها «كاتب العراق» الذي كان يشغل أحياناً منصب صاحب الديوان.

وأما الوظائف الدينية فكان على رأسها منصب قاضي القضاة، فقد أحضر القاضي عبد المنعم البندنيجي عند هولاكو، فأقره عل منصب قاضي القضاة، وأما الأوقاف فإن جميع الأوقاف الإسلامية في الدولة الإيلخانية وضعت تحت إشراف نصير الدين الطوسي، وفي بغداد جرى تعيين شهاب الدين بن عبد الله صدراً للوقوف، فأشرف على ترميم جامع الخليفة الذي تعرض للحريق، وترميم مشهد الإمام الكاظم موسى بن جعفر، وعلى فتح المدارس والربط وإثبات الفقهاء والصوفية، وبعد أن أقر أسس إدارة العراق، عاد هولاكو إلى إيران، إذ أصبحت خراسان في تلك الأيام قاعدة النفوذ المغولي، ومركز دولة هولاكو الإيلخانية التي حكمت ثمانين عاماً، بينما أصبح العراق إقليماً تابعاً لتلك الدولة[2]. وكانت الدولة الإيلخانية بفارس والعراق تمتد من نهر جيحون إلى المحيط الهندي، ومن السند إلى الفرات، وبعض أراضي آسيا الصغرى، وكان حكام إيران يحملون إيلخان للدلالة على تبعيتهم للخاقان الأعظم في الصين، وتعاقب على حكم إيران الإيلخانات حتى سنة (756هـ/ 1355م)، حيث زالت دولتهم[3].

إدارة العراق في عهد الجويني: في ذي الحجة سنة (657هـ) أي بعد سقوط بغداد بسنة واحدة توفي الوزير عز الدين أبو الفضل ابن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الأسدي، فتولى بعده أمر الديوان في بغداد المؤرخ علاء الدين عطاء ملك الجويني، وكان من أسرة إيرانية عريقة في الآداب والإدارة، ولها مكانة مرموقة في إيران، بتعيينه

(1) العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية، ص: 138.
(2) المصدر نفسه، ص: 139.
(3) الدولة المستقلة في المشرق، ص: 205.

خرج أمر الوزارة من يد عرب العراق، إذ ارتبطت إدارته بصورة أوثق بالإدارة المركزية في إيران، كان الجويني من عمال الديوان للأمير المغولي أرغون حاكم إيران، وقد قام الجويني بعدة أسفار في بلاد المغول، واطلع بصورة مباشرة على أحوالهم وأحوال بلادهم، ودرس أحوال الأقوام التركومغولية، وتمكن من أن يجمع مادة تاريخية وفيرة كتب على أساسها بالفارسية تاريخ تلك الأقوام، وسمى ذلك الكتاب «تاريخ جهانكشاي» ـ أي تاريخ فاتح العالم ـ ويعني به جنكيز خان، وقد أصبح كتابه هذا المرجع الرئيس لتاريخ المغول، غير أن أحداث ذلك الكتاب، تقف بعد ذكر وقائع حروب هولاكو مع الإسماعيلية في بلاد الجبل إذ كان الجويني مصاحباً له في تلك الحروب، وكان الجويني ممن صاحب هولاكو في زحفه نحو بغداد[1].

9 ـ وفود الملوك والأمراء على هولاكو: أوقع سقوط بغداد العالم الإسلامي في فزع وذهول وحيرة، فسار حكامه المستضعفون إلى الطاغية هولاكو يقدمون له فروض الطاعة والتهنئة ويتملقونه خوفاً من بطشه واتقاء شره، فكان ممن حضر لتهنئته في مراغة في أذربيجان أتابك الموصل الهرم «بدر الدين لؤلؤ»، وأرسل أبو بكر أتابك فارس ابنه للغرض نفسه، وصل كذلك إلى معسكر هولاكو بالقرب من تبريز اثنان من سلاطين سلاجقة الروم، وهما الأخوان المتنافسان: السلطان عز الدين كيكاوسي الثاني، والسلطان ركن الدين قلج أرسلان الرابع، أما عز الدين فكان يرتجف رعباً، لأن جنوده حاولوا أن يصمدوا أمام القائد المغولي «بايجونويان» فدحرهم في «آقسرا»، فلما سقطت بغداد على يد هولاكو أحس عز الدين بحرج مركزه وخشي بطش الخان، فحاول أن يخلص نفسه من تلك الورطة بنوع مبتكر من التملق الذي حمل طابع الخضوع والذلة وذلك أنه رسم صورته على نعل زوج من الأحذية وقدمها للخان الساخط قائلاً له: عبدك يأمل أن يتفضل الملك فيشرف رأس عبده بوضع قدمه المباركة عليها[2]، فرق له قلب الطاغية هولاكو ورفعت دوقوزخاتون من قدره، وتشفعت له، فعفا عنه الإيلخان، ولا شك أن ذلك الموقف المخزي يصور لنا الحد الذي بلغه بعض الحكام المسلمين من الاستذلال والمهانة[3].

سادساً: سقوط الدولة العباسية وترجمة للخليفة المستعصم بالله: قال ابن

(1) العراق بين سقوط الدولة العباسية والدولة العثمانية، ص: 140، 141.
(2) المغول، للصياد، ص: 279.
(3) المصدر نفسه، ص: 279.

كثير: المستعصم بالله أمير المؤمنين، آخر خلفاء بني العباس بالعراق، وهو أبو أحمد عبد الله ابن أمير المؤمنين، المستنصر بالله أبي جعفر منصور ابن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد ابن الناصر لدين الله، أبو العباس أحمد ابن أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن ابن أمير المؤمنين المستنجد بالله أبو المظفر يوسف ابن أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد ابن أمير المؤمنين المستظهر بالله أبو العباس أحمد ابن المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله ابن الأمير الذخيرة أبو العباس أحمد ابن الأمير إسحاق ابن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر ابن المعتضد بالله أبي العباس أحمد ابن الأمير الموفق أبي أحمد طلحة ابن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر ابن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد ابن الرشيد أبي محمد هارون بن المهدي أبي عبد الله محمد ابن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن المطلب بن هاشم الهاشمي العباسي، مولده سنة تسع وستمائة وبويع له بالخلافة في العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين، وكان مقتله في يوم الأربعاء الأربع عشر من صفر سنة ست وخمسين وستمائة، فيكون عمره يوم قتل سبعة وأربعين سنة، رحمه الله تعالى، وقد كان حسن الصورة جيد السيرة صحيح السريرة صحيح العقيدة، مقتدياً بأبيه المستنصر في المعدلة وكثرة الصدقات وإكرام العلماء والعباد، وقد سيجاز له الحافظ بن النجار من مشايخ خراسان، منهم المؤيد الطوسي وأبو روح عبد المعز بن محمد الهرَويُّ، وأبو بكر القاسم بن عبد الله بن الضَّفَّار وغيرهم، وحدَّث عنه جماعة منهم مؤدِّبه شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن علي بن محمد بن السَّيَّار، وأجازه للإمام محيي الدين بن الجوزي والشيخ نجم الدين الباذراني وحدَّثا عنه بهذه الإجازة، وقد كان رحمه الله سنياً على طريقة السلف واعتقاد الجماعة، كما كان أبوه وجدَّه ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ ومحبة للمال وجمعه، ومن جملة ذلك أنه غلَّ الوديعة التي استودعه إياها الناصر داود بن المعَظَّم، وكانت قيمتها نحواً من مائة ألف دينار، فاستقبح هذا من مثل الخليفة،وهو مستقبح ممن هو دونه بكثير، بل من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران، الآية: 75].

قتلته التتار مظلوماً مضطهداً في يوم الأربعاء رابع عشر صفر من هذه السنة وله من العمر ستة وأربعون سنة وأربعة أشهر، وكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً، فرحمه الله وأكرم مثواه، وبلّ بالرحمة ثراه، وقد قتل بعده ولدان، وأسر الثالث، مع بنات ثلاث من صلبه، وشغر منصب الخلافة ولم يبق في بني العباس من

سدَّه مسدَّه، فكان آخر الخلفاء من بني العباس الحاكمين بالعدل بين الناس، ومن يُرتجى منهم النوال ويُخشى منهم البأس وخُتموا بعبد الله المستعصم سبعة وثلاثين خليفة، فكان أولهم عبد الله السفاح بويع له بالخلافة وظهر ملكه وأمره في سنة سنتين وثلاثين ومائة، بعد انقضاء دولة بني أمية، وآخرهم عبد الله المستعصم وقد زال ملكه وانقضت خلافته في هذا العام أعني سنة ستٍّ وخمسين وستمائة، فجملة أيامهم خمسمائة سنة وأربعة وعشرون سنة، وزالت يدهم عن العراق والحكم بالكلية سنة وشهور في أيام البساسيري بعد الخمسين وأربعمائة ثم عادت كما كانت ولم تكن أيدي بني العباس حاكمة على جميع البلاد، كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار[1].

وقد خرج عن بني العباس بلاد المغرب ملكها في أوائل الأمر بعض بني أمية ممَّن بقي معهم من ذرية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، ثم تغلب عليه الملوك بعد دهور متطاولة، وقارن بني العباس دولة المدَّعين أنهم من الفاطميين ببلاد مصر وبعض بلاد المغرب وما هنالك، وبلاد الشام في بعض الأحيان والحرمين في أزمان طويلة[2].

واستمرت دولة الفاطميين قريباً من ثلاثمائة سنة حتى كان آخرهم العاضد الذي مات بعد ستين وخمسمائة في الدولة الصلاحية الناصرية المقدسية، وكانت عدة ملوك الفاطميين أربعة عشر ملكاً مختلفاً، ومدة ملكهم تحريراً من سنة سبع وتسعين ومائتين إلى أن توفي العاضد سنة بضع وستين وخمسمائة، والعجب أن خلافة النبوة التالية لزمان رسول الله كانت ثلاثين سنة، كما نطق بهذا الحديث الصحيح، فكان فيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، ثم علي، ثم ابنه الحسن بن علي ستة أشهر حتى كملت بها ثلاثون، كما قررنا ذلك في دلائل النبوة، ثم كانت ملكاً، فكان أول ملوك الإسلام من بني أبي سفيان معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية ثم ابنه يزيد، ثم ابن ابنه معاوية بن يزيد ابن معاوية، وانقرض هذا البطن المفتتح بمعاوية المختتم بمعاوية، ثم ملك مروان ابن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، ثم ابنه عبد الملك، ثم الوليد بن عبد الملك، ثم أخوه سليمان، ثم ابن عمه عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن عبد الملك، ثم هشام بن عبد الملك، ثم الوليد بن يزيد، ثم يزيد بن

(1) البداية والنهاية (17/ 367).
(2) البداية والنهاية، (17/ 367).

الوليد، ثم أخوه إبراهيم الناقص، وهو ابن الوليد أيضاً، ثم مروان بن محمد الملقب بالحمار، وكان آخرهم، فكان أولهم اسمه مروان وآخرهم اسمه مروان، وكان أول خلفاء بني العباس اسمه السفاح واسمه عبد الله، وكان آخرهم المتعصم واسمه عبد الله، وكذلك أول الفاطميين اسمه عبد الله المهدي وآخرهم عبد الله العاضد، وهذا اتفاق غريب جداً قل من يتنبَّه له[1]. والله سبحانه أعلم.

وهذه أرجوزة لبعض الفضلاء انتظم فيها ذِكرَ جميع الخلفاء:

الحمد لله العظيم عَرْشُهُ ... القاهر الفرد القويِّ بطشُه
مقلِّبِ الأيام والدُّهور ... وجامع الأنام للنُّشُور
ثم الصلاةُ بدوام الأبد ... على النبيِّ المصطفى محمد
وآله وصحبه الكِرام ... السادة الأئمة الأعلام
وبعد هذا هذه أُرجوزة ... نظمتها لطيفة وجيزة
نظمت فيها الراشدين الخلفا ... من قام من بعد النبيِّ المصطفى
ومن تلاهم وهَلُمَّ جَرًّا ... جعلتها تبصرة وذكرى
ليعلم العاقلُ ذو التَّصوير ... كيف جرت حوادث الأمور
وكلُّ ذي مقدرة ومُلك ... معرَّضون للفَنَاء والهُلْكِ
وفي اختلاف الليل والنهار ... تبصرة لكلِّ ذي اعتبار
والملك للجبار في بلاده ... يورثه من يشاء من عباده
وكل مخلوق فللفناء ... وكل ملك فإلى انتهاء
ولا يدوم غير ملك الباري ... سبحانه من مَلِكِ القهار
منفرد بالعزِّ والبقاء ... وما سواه فإلى انقضاء
أول من بُويِع بالخلافة ... بعد النبي ابنُ أبي قحافة
أعني الإمامَ العادلَ الصديقا ... ثم ارتضى من بعده الفاروقا
ففتح البلاد والأمصارا ... واستأصلت سيُوفُه الكُفارا
وقام بالعدل قياماً يُرضِي ... بذاك جبارَ السماء والأرض
ورضي الناس بذي النورين ... ثم عليٍّ والد السِّبْطين
ثم أتت كتائب مع الحسن ... كادوا بأن يُجَدِّدوا بها الفتن

(1) البداية والنهاية (17/ 368).

فأصلح الله على يديه ... كما عزا نبيُّنا إليه
وأجمع الناس على معاوية ... ونقل القصة كلُّ راوية
فمهد الملك كما يريد ... وقام فيه بعده يزيد
ثم ابنه وكان برًّا راشدا ... أعني أبا ليلى وكان زاهدا
فترك الإمرةَ لا عن غلَبَة ... ولم يكن منه إليها طلبة
وابن الزبير بالحجاز يدأب ... وفي طلب الملك وفيه ينصر
وبالشام بايعوا مروانا ... بحكم من يقول كن فكانا
ولم يدم في الملك غير عام ... وعافصته أسهم الحمام
واستوثق الملك لعبد الملك ... ونارَ نجمُ سعده في الفَلَك
وكلُّ من نازعه في الملك ... خرَّ صريعاً بسيوف الهُلْك
فقتل المُصْعَبَ بالعراق ... وسيَّر الحجاج ذي الشقاق
إلى الحجاز بسيوف النِّقم ... وابن الزبير لائذٌ بالحرم
فجاء بعد قتله بصلبه ... ولم يَخَفْ في أمره من ربه
وعندما صفت له الأمور ... تقلبت لحينه الدهور
ثم أتى من بعده الوليد ... ثم سليمان الفتى الرشيد
ثم استفاض في الورى عدل عمر ... تابع أمر ربه كما أمر
وكان يُدْعى بأسبح القوم ... وذي الصلاة والتُّقى والصوم
فجاء بالعدل وبالإحسان ... وكفَّ أهل الظلم والطُّغيان
مقتدياً بسنة الرسول ... والراشدين من ذوي العقول
فجُرِّع الإسلام كأسى فقده ... ولم يرَوا مِثْلاً له من بعده
ثم يزيد بعده هشام ... ثم الوليد فُتَّ منه الهام
ثم يزيد وهو يدعى الناقصا ... فجاءه حِمامُهُ معافِصا
ولم تَطُل مَدة إبراهيما ... وكان كل أمره سقيما
وأسند الملك إلى مروانا ... فكان من أموره ما كانا
وانقرض الملك على يديه ... وحادث الدهر سطا عليه
وقتله قد كان بالصَّعيد ... ولم تفده كثرة العديد
وكان فيه حتف آل الحكم ... واستُنزعت عنهم ضُروب النِّعم
ثم أتى ملك بني العباس ... لا زال فينا ثابتَ الأساس
وجاءت البيعة من أرض العجم ... وقلَّدت بيعتهم كلُّ الأمم

وكل من نازعهم من أمم ... خرّ صريعاً لليدين والفم
وقد ذكرت من تولّى منهم ... حين تولى القائم المستعصم
أولهم ينعت بالسفاح ... وبعده المنصور ذو النجاح[1]
ثم أتى من بعده المهدي ... يتلوه موسى الهادي الصَّفيُّ
وجاء هارون الرشيدُ بعده ... ثم الأمين حين ذاق فقده
وقام بعد قتله المأمون ... وبعده المعتصم المكين
واستخلف الواثق بعد المعتصم ... ثم أخوه جعفر مُوفِي الذِّمم
وأخلص النية في التوكل ... لله ذي العرش القديم الأول
فأدحض البدعة في زمانه ... وقامت السُّنَّةُ في أوانه
ولم يُبَقِّ بدعة مُضِلَّة ... وألبس المعتزليَّ ذِلَّة
فرحمة الله عليه أبداً ... ما غار نجم في السماء أو بَدا
وعندما استشهد قام المنتصر ... والمستعين بعده كما ذُكِر
وجاء بعد موته المعتز ... والمهتدي المكرَّمُ الأعزُّ
وبعده استولى وقام المعتمد ... ومهد الملك وساس المعتضد
والمكتفي في الصحف العليا سُطر ... وبعده ساس الأمور المقتدر
واستوثق الملك بعزّ القاهر ... وبعده الراضي أخو المفاخر
والمتقي من بعده والمتكفي ... ثم المطيع ما به خُلْفِ
والطائع الطائع ثم القادرُ ... والقام الزاهد وهو الشاكر
والمقتدي من بعده المستظهر ... ثم أتى المسترشدُ الموقَّرُ
وبعده الراشدُ ثم المقتفي ... وحين مات استنجدوا بيوسف[2]
والمستضيء العادل في أفعاله ... الصادق الصدوق في أقواله
والناصر الشهمُ الشديد الباس ... ودام طول مُكثه في الناس
ثم تلاه الظاهرُ الكريمُ ... وعَدْله كلٌّ به عليم
ولم تُطل أيامه في المملكة ... غيرَ شهور واعترته الهلكة
وعهده كان إلى المستنصر ... العادل البَرِّ الكريم العنصر
دام يسوسُ الناس سبْع عشرة ... وأشهراً بعزمات برّة

(1) البداية والنهاية (17/ 371).
(2) البداية والنهاية (17/ 372).

ثم تَوُفِّي عام أربعينا ... وفي جمادى صادفَ المنونا
وبايع الخلائقُ المُستعصما ... صلَّى عليه ربُّنا وسلَّما
يبعثُ نُجب الرّسل من الآفاق ... يقضون بالبيعة والوفاق
وشرّفوا بذكره المنابرا ... ونشروا من جُودِهِ المفاخرا
وسار في الآفاق حسنُ سيرته ... وعدله الزائد في رعيته[1]

قال الشيخ عماد الدين ابن كثير: ثم قلت أنا بعد ذلك أبياتاً:

ثم ابتلاه الله بعد التتار ... أتباع جنكيز خان الجبَّار
صحبه ابنٍ ابن له هولاكو ... فلم يكن من أمره فكاك
فمزقوا جنوده وشمله ... وقتلوه نفسه وأهله
ودمروا بغداد والبلادا ... وقتّلوا الأحفاد والأجدادا
وانتهبوا المال مع الحريم ... ولم يخافوا سطوة العظيم
وغرَّهم إنظاره وحلمه ... وما اقتضاه عدله وحكمه
وشغرت من بعده الخلافة ... ولم يؤرَّخ مثلها من آفة
ثم أقام الملك أعني الظاهرا ... خليفة أعني به المستنصرا
ثم وَلِي من بعد ذاك الحاكم ... قسيم بيبرس الإمام العالم
ثم ابنُه الخليفة المتكفي ... وبعض هذا للبيب يكفي
ثم وَلِي من بعده جماعة ... ما عندهم علم ولا بضاعة[2]
ثم خليفة الوقت المعتضد ... ولا يكاد الدِهر مثله يَجد
في حسن خُلْق واعتقاد وجَلى ... كيف لا وهو من الثُّمِّ الأُلى
سادوا البلاد والعباد فضلاً ... وملئُوا الأقطار حِكَماً وعدلا
أولادِ عم المصطفى محمد ... وأفضل الخلق بلا تردُّدِ
صلَّى عليه ذو الجلال ... ما دامت الأيام والليالي[3]

سابعاً: أهم أسباب سقوط الدولة العباسية: إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا وهلاكاً وعذاباً في الآخرة. وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية

(1) البداية والنهاية (17/ 373).
(2) المصدر نفسه (17/ 373).
(3) المصدر نفسه (17/ 374).

والاقتصادية، وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور، الآية: 63].

لقد ابتعدت الأمة الإسلامية مع حكامها في أواخر الدولة العباسية عن شرع الله وانغمست في حياة المادة وأصيبت بالقلق والحيرة والخوف والجبن، وانهارت أمام غزو المغول، وتصدعت خطوط الدفاع المقدمة، ولم تستطع أن تقف وقفة عز وشموخ واستعلاء وإذا تشجعت في معركة من المعارك ضعفت قلوبها أمام الأعداء من أثر المعاصي، وأصبحت في ضنك من العيش ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه، الآية: 124]. لقد أصيبت الأمة بحكامها وشعوبها إلا ما رحم الله في الجانب الشرقي منها في بلاد ما وراء النهر، وإيران والعراق بالتبلد وفقد الإحساس بالذات ومات ضميرها الروحي، فلا أمر بالمعروف تأمر به ولا نهي عن المنكر تنهى عنه، وأصابهم ما أصاب بني إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة، الآيتان: 78، 79].

فإن الأمة عندما لا تعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل، قال رسول الله ﷺ: «**كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضاً، ثم ليلعنكم كما لعنهم**[1]».

إن حكام المسلمين في بلاد ما وراء النهر وإيران والعراق تحققت فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال، الآية: 53]، كما أن المجتمعات التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله، وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة، لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم، لقد كانت ممالك المسلمين في تلك الديار مليئة بالاعتداءات

(1) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، رقم الحديث: 4670.

على الأنفس والأموال والأعراض، وتعطلت أحكام الله بينهم، ونشبت حروب وفتن وبلايا، تولدت على أثرها عداوة وبغضاء بسبب الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسوله سهلت مهمة المغول في بخارى وسمرقند، وأفغانستان وإيران، والعراق فأصبحت شوكتهم تقوى، وحصلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن ملوك تلك البلدان وحرموا من التمكين وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم، وبعض المدن تبتلى بالجوع بسبب حصار المغول لهم، وكم قتل المغول من المسلمين وكم سبوا من نسائهم.

إن الابتعاد عن شرع الله تعالى، وعدم الأخذ بسنن الله في إدارة الصراع ترتب عليه انتقاص الأرض وضياع الملك، وتسلط الكفار، وتوالي المصائب.

إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عصي الله تعالى ممن يعرفونه سلَّط عليهم من لا يعرفونه، ولذلك سلط الله المغول على المسلمين، وعندما تحرك الفقهاء والعلماء بمصر والتفوا حول دولة سيف الدين قطز وتعاهدوا على نصرة دين الله، نصرهم على المغول في عين جالوت يأتي الحديث عنها بإذن الله مفصلاً.

إن الذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

ـ معاندة الرسل والكفر بما جاؤوا به[1].

ـ كفر النعم بالبطر والأثرة، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعمة الله واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام. والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه ملوك المسلمين وأمراؤهم وأتقنوه إتقاناً عجيباً في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ الأمة[2].

لقد تعددت أسباب سقوط الدولة العباسية، فقد تطاول عليها الزمن وأدركتها الشيخوخة، وبدت عليها مظاهر الانهيار قبيل حملة هولاكو، وكانت جذور العنف تمتد في جسم هذه الدولة قبل ذلك بمدة طويلة لأسباب كثيرة يأتي بيانها بإذن الله تعالى من أهمها:

(1) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، للصَّلاَّبي، ص: 142.
(2) المصدر نفسه، ص: 142.

1 ـ غياب القيادة الحكيمة: لم تكن شخصية الخليفة المستعصم بالله تمثل القيادة الحكيمة الراشدة، بل كان ضعيف الشخصية ولم يكن الرجل المناسب في المكان المناسب، لقلة خبرته وعدم اهتمامه بأمور دولته، ففي الوقت الذي كانت الأخبار تصل إليه تباعاً باقتراب جيوش المغول، لم يتخذ الاستعداد الكافي لمواجهتها قبل أن يستفحل خطرها[1]، لم يكن على مستوى من التيقظ والهمة، بل كان قليل المعرفة والتدبير والتيقظ، نازل الهمة،، محباً للمال، مهملاً للأمور، يتكل فيها على غيره، ولو لم يكن فيه إلا ما فعله مع الملك الناصر داود في الوديعة لكفاه ذلك عاراً وشناراً.

فكان الضعف القيادي في شخصية المستعصم من الأسباب والمقدمات في زوال الدول العباسية، لم يحسن اختيار الوزراء، وليست له قدرة على المتابعة والمحاسبة وكان يقاد ولا يقود، وكان سلوكه هذا سبباً لجرأة بعضهم عليه واستغفاله وتحديه. فازدادت الفتن في زمانه وازداد التذمر وازداد تدهور الحياة الاقتصادية وانتشار الغلاء وسيطر اللصوص والشطار العيارون ينهبون ويسلبون أمام الشرطة وصاحبها أو بالتواطؤ معه، والخليفة لا يحاسب صاحب الشرطة ولا يحاسب الوزير الذي هيمن على جميع الأمور في البلاد وولاياتها التي انفصلت واستقلت. والوزير ابن العلقمي يمهد للانقلاب، حتى يسهل تمرير المؤامرة لإزالة السيادة الإسلامية، وإسقاط الخلافة[2].

لقد غابت القيادة الحكيمة الربانية والتي تحدث عنها المولى ﷻ في كتابه وبين صفاتها وأخلاقها لكي تعمل الأمة على إيجادها، ولكن الأمة تركت حقها في الاختيار، وتأثرت مع الزمن والوقت بمعاول هدم روح المبادرة، والمحاسبة والمتابعة والوقوف ضد أخطاء الحكام، وأصبح الخليفة محمي بقداسة وهمية صنعت لهذا المنصب مع مرور الزمن، والابتعاد عن روح الشريعة ومقاصدها الغراء، وإلا فالمعايير والصفات للقيادة الحكيمة بينها المولى عز وجل في سورة الكهف في قصة ذي القرنين وفي سيرة داود وسليمان عليهما السلام، وغيرها فقد بين المولى ﷻ من خلال الحديث عن ذي القرنين معالم التمكين عنده لكي يقتدي حكام الأمة بهذه النماذج وتحدث عن معالم التمكين والتي من أهمها:

* دستوره العادل: قال تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف، الآيتان: 87، 88].

(1) جهاد المماليك، ص: 351، قضايا ومواقف من التاريخ العباسي، ص: 204.
(2) بغداد مدينة السلام غزو المغول، ص: 125.

* **اهتمامه بالعلوم المادية وتوظيفها للخير:** فقد وظف عدة علوم في دولته القوية من أهمها علم الجغرافيا حيث نجد أن ذا القرنين كان على علم بتقسيمات الأرض وفجاجها وسبلها، ووديانها وجبالها وسهولها، لذلك استطاع أن يوظف هذا العلم في حركته مع جيوشه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وكان صاحب خبرة ودراية بمختلف العلوم المتاحة في عصره يدل على ذلك، اختياره للخامات ومعرفته بخواصها، وإجادته لاستعمالها والاستفادة منها، فقد استعمل المعادن على أحسن ما خلقت له ووظف الإمكانات على خير ما أتيح له ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الكهف، الآية: 96].

* **كان واقعياً في قياسه للأمور وتدبيره لها:** فقد قدّر حجم الخطر، وقدّر ما يحتاجه إليه من علاج، وذكر القرآن الكريم أخلاقه القيادية من الصبر والمهابة والشجاعة والتوازن في شخصيته وكثرة ذكره لخالقه وعفته عن أموال الناس ورحلاته الجهادية في سبيل الله والمفاهيم الحضارية التي مارسها في حياته، ومن أراد التوسع فليراجع كتابي «فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم»[1].

هذه المعايير والمقاييس والأخلاق في اختيار الحاكم غابت عن المسلمين وتولى منصب الخلافة من ليس بأهل لها، وبالتالي ساهم ضعف الخليفة في سقوط الدولة العباسية.

2 ـ إهمال العباسيين لفريضة الجهاد: إن أخطر العوامل التي أسقطت خلافة العباسيين إهمالهم لفريضة الجهاد، فبعد المعتصم المتولي أمور الدولة سنة(833هـ) لم نسمع عن معارك ذات شأن قامت بها الدولة، ولم يكن مبدأ «الجهاد الدائم» حماية لهذه الدولة المترامية الأطراف أحد أركان السياسة العباسية، لقد تقوقعوا في مشاكل الدولة الداخلية، فحصرتهم مشاكلها وماتوا ببطء، ولو أنهم وجهوا طاقة الأمة نحو «الجهاد» ضد الصليبيين، لتغير أمر الحركات الهدامة التي قدر لها أن تظهر وتنتشر، وذلك أن هذه الحركات لا تنتشر إلا في جو مليء بالركود والفساد والمناخ الوحيد الصالح للقضاء عليها وهو المناخ القتالي الذي يكشف المعادن النقية، ويذيب المعدن الرخيص. لقد كانت الحاجة الإسلامية ملحة إلى ضرورة رفع راية الجهاد، وكانت الدولة الإسلامية التي تعرضت للانشقاق والتمزق تحتاج إلى هذا الصمام ليحميها من

(1) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 163 ـ 184.

جو السكوت والاستسلام، لكن العباسيين غزوا في عقر دارهم فذلوا، ولم يرفعوا راية الجهاد ضد الغزو الخارجي، فارتفعت رايات العصيان الداخلي وكان بإمكانهم أن يشغلوا الأجناس المختلفة التي ضمتها الدولة في هذه الحروب الجهادية المستمرة ضد الغزاة وضد الوثنيات المختلفة، لكنهم لم يفعلوا فتحركت النعرات القومية الجاهلية لتفتت الدولة وتقسم جسمها تحت رايات مختلفة ليس لها بالإسلام أو بالجهاد صلة، وفي سنة (656هـ 1258م) كان هولاكو ـ حفيد جنكيز خان ـ يدمر الذين اتجهوا إلى كل السبل إلا سبيل الجهاد، وحاولوا العلاج بكل الوسائل إلا الوسيلة الإسلامية الخالدة القوية، وقد هاجم هولاكو بغداد وهد أسوارها وأعمل المنجنيق فيها، وحصد بغداد، حتى لم يعد ممكناً الإقامة فيها لشدة روائحها المنفرة، وعندما خرج الخليفة المستعصم إليه مستسلماً بصحبة ثلاثمائة من أصحابه وقضاته دون شرط، أمر هولاكو بقتلهم جميعاً، وطويت صفحة الخلافة العباسية، ذلك أن أسلوب الأحلام الرومانتيكية الساذجة ليس وسيلة البقاء أو تشييد الحضارات، فالذين لا يملكون إرادة الهجوم، يفقدون القدرة على الدفاع[1]، لقد عطلت الدولة العباسية هذه الفريضة وتخلت عن أهدافها والتي من أهمها:

أ ـ إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء، الآية: ١٠٥].

ب ـ دفع عدوان الكافرين، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء، الآية: 74].

جـ ـ رد اعتداء الكفار في ديار المسلمين: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة، الآية: 190].

وغير ذلك من الأهداف، فكان إهمال فريضة الجهاد وعدم الاهتمام بأهدافه من أسباب زوال الدولة العباسية.

3 ـ انعدام الوحدة السياسية في العالم الإسلامي: بدأ الضعف يتسرب إلى

(1) دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، ص: 127.

جسم الدولة العباسية المترامية الأطراف في العقود الأخيرة من القرن الثاني للهجرة، الثامن الميلادي، عندما بدأت بعض الولايات البعيدة عن مركز الدولة في بغداد تنفصل مكونة دولاً مستقلة وتعجز الخلافة عن إعادتها للسيطرة المركزية، فقد تأسست دولة الأدارسة أقصى المغرب عام 172هـ ـ 800م، ثم قامت الدولة الفاطمية على أنقاض دولة الأغالبة في تونس عام 297هـ/ 909م، وفي مصر قامت الدولة الطولونية عام 254هـ/ 868م، أعقبتها الدولة الإخشيدية عام 323هـ/ 935م وفي عام 358هـ/ 969م استولى الفاطميون على مصر وجعلوا القاهرة عاصمة دولتهم، وهكذا خرج المغرب الإسلامي ومصر بشكل تدريجي من حيث الزمان والمكان عن نطاق الدولة العباسية، وظهرت خلافة جديدة تسيطر على النصف الغربي من العالم الإسلامي وتسعى للسيطرة على النصف الشرقي الذي أصابه من أصاب النصف الأول من حيث قيام الدول المستقلة، فقد قامت الدولة الظاهرية في خراسان عام 205هـ/ 820م وتبعتها الدولة الصفارية عام 254هـ/ 867م، ثم غلبت على المنطقة الدول السامانية التي تأسست عام 204هـ/ 819م في بلاد ما وراء النهر ثم امتد نفوذها لتشمل جميع البلاد التي كانت تتبع للدولة الصفارية، وكان نفوذ الخلافة العباسية يتحول من سلطة سياسية إدارية روحية إلى سلطة روحية فقط، ولم يبق للخليفة سوى ذكر اسمه في خطب الجمعة متبوعاً باسم السلطان الغالب على البلاد، ويعود السبب الرئيس في ضعف الخلافة العباسية وتلاشي سلطتها[1] إلى أسباب كثيرة ليس هنا مجال بحثها. وقد تمكن الأتراك في عهد المعتصم (818م ـ 227هـ)، وكانت لهم حظوة في عهده وقربهم وأسند لهم المناصب العليا في مركز الدولة والولايات، واعتمد عليهم في حراسة قصره، حتى تطاولوا على الناس وكثرت شكاوي الناس من ظلمهم في بغداد، فبنى لهم المعتصم مدينة سامراء وجعلها عاصمة لهم ومن حوله حاشيته من الأتراك، وزاد نفوذهم وصاروا وحدهم المتسلطين على أمور الخلافة والدولة، حتى أصبحوا هم الذين ينتخبون الخليفة الذي يريدون، يعزلون من لا يوافق رغباتهم وأهواءهم، وفي عام 334هـ/ 945م استولى البويهيون الشيعة على العراق وأضافوه إلى دولتهم التي تأسست قبل ذلك في فارس، وصاروا هم المتسلطين على شؤون الخلافة، وتعسفوا في معاملة الخليفة حتى أنهم عذبوا بعض الخلفاء وسجنوا بعضهم، وقتلوا البعض الآخر، وكان بإمكانهم القضاء على الخلافة العباسية والدعوة للخلافة الفاطمية في العراق وباقي المشرق الإسلامي خاصة بعد

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 25.

استيلاء الفاطميين على مصر، لكنهم لم يفعلوا ذلك ليس حفاظاً على الخلافة العباسية، بل حفاظاً على سلطانهم ودولتهم من أن تزول لصالح الفاطميين، الذين تمكنوا من بسط سيطرتهم على بلاد الشام وشبه جزيرة العرب، وأخذوا يبثون دعاتهم في العراق لإنهاء الخلافة العباسية وضم باقي المشرق الإسلامي لدولتهم، وفي عام 447هـ/ 1055م استغل أحد دعاتهم ضعف سلطة البويهيين وأثار فتنة في بغداد وتمكن خلالها مع مؤيديه من إلقاء القبض على الخليفة وحبسه، فاستنجد الخليفة بالسلطان طغرل بك سلطان السلاجقة الذين كانوا قد أسسوا دولتهم عام 427هـ/ 1037م في بعض مناطق خراسان، ثم توسعوا جنوباً وغرباً في أراضي الدولة البويهية التي كانت قد ضعفت، كما تقدم وسارع سلطان السلاجقة إلى استغلال الفرصة فتوجه إلى العراق وقضى على الفتنة وعلى الدولة البويهية وأعاد للخليفة اعتباره، ولكن البساسيري الذي تأثر بدعوة الفاطميين استولى على بغداد بعد أن غادرها طغرل بك 450هـ/ 1058م وأقام الدعوة فيها للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، إلا أن طغرل بك عاد إلى بغداد من جديد وقضى على داعية الفاطميين، واستقرت الأوضاع في العراق لصالح دولة السلاجقة السنيين، الذين أظهروا قدراً كبيراً من الاحترام للخليفة، ولكنهم أبقوه رمزاً دينياً بدون قوة وصلاحيات.

وعندما اجتاح الصليبيون بلاد الشام عام 492هـ/ 1099م كانت الخلافة العباسية عاجزة تماماً عن القيام بأي رد فعل سوى توجيه الرسل إلى سلاطين السلاجقة لمعالجة الأمر[1]. وأصبحت العلاقة بين السلاجقة والخلافة العباسية بين مد وجزر إلى نهايتها ومجيء الخوارزميين كقوة جديدة اصطدمت بالخلفاء العباسيين، وقد بينا ذلك.

وفي عهد المستعصم بالله العباسي آخر خلفاء العباسيين وبالرغم من المتاعب والمحن التي أحاطت بالخلافة العباسية، فإن المصادر لم تشر إلى أية محاولة من الخليفة العباسي المستعصم بالله في الاتصال بالقوى الإسلامية وبالأخص الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر، إذ يبدو أنه كان واهماً بأن تلك القوى ستكون رهن إشارته عند الحاجة لها، يدلنا على ذلك تلك الرسالة التي رد بها الخليفة على تهديدات هولاكو، والتي ذكر فيها بأن كل القوى الإسلامية تنتظر إشارة بسيطة منه للوقوف في وجه المغول، متناسياً بأن الأيوبيين والمماليك كان لديهم من المشاكل ما يمنعهم من تقديم أي مساعدة لبغداد[2].

(1) دولة السلاجقة، للصلابي، ص: 559.

(2) جهاد المماليك، ص: 53، للغامدي،

4 ـ ضعف الجيش العباسي: في أواخر عهود الخلافة العباسية، بدأ التفكك يدب في كيان الدولة، وبدأت الولايات تنعزل أو يستغل بها ولاتها جزئياً أو كلياً، فينتبه خليفة ويهمل خليفة آخر شأن الجيش، أو ينتبه الخليفة نفسه في فترة لهذا الجيش، ويهمله في فترة أخرى. وكان آخر من سجل نقطة تحول في تجديد الحياة في الجيش العباسي، وبث الحيوية في تنظيماته هو: الخليفة المستنصر بالله أبو الخليفة المستعصم بالله، وذلك بعد أن تمزقت الدولة العباسية، وبدأت السيادة الإسلامية العباسية تفقد نفوذها وأخذ التشرذم ينتاب هذه الدولة.

ومع مجيء الخليفة المستنصر بالله رفع عدد جنوده إلى مائة ألف جندي للتمكن من صد زحف المغول المحتمل، ومحاولة ردهم عن تخوم الدولة ومقاتلتهم واستخلاص الأراضي التي بسطوا هيمنتهم عليها، لكن بطانة الخليفة المستعصم بالله، لم تلتفت إلى هذا الأمر، وتركت مهمته إلى الخليفة الذي اقتنع برأي وزيره الفارسي ابن العلقمي بإنقاص عدد الجند إلى عشرين ألف فقط، ولم تحرك بطانة الخليفة ولا أمراء الجند ساكناً في هذا الحدث المهم والكبير، بالرغم من وجود خطر داهم أصبح عاصمته همذان، وهي قاعدة الانطلاق العسكري بالرغم من نهشه المتفاوت لتخوم الدولة العباسية الضيقة الحدود، إذ كان الخليفة قد أهمل حال الجند ومنعهم أرزاقهم وأسقط أكثر من دساتير ديوان العرض فآلت أحوالهم إلى سؤال الناس وبذل وجوههم في الطلب في الأسواق والجوامع، ونظم الشعراء في ذلك الأشعار[1]، ويقول ابن كثير: وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمه من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر بالله قريباً من مائة ألف مقاتل منهم الأمراء أو من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتر وأطمعهم في أخذ البلاد.. وأن يبيد العلماء والمفتين[2]، وكان النظام مفقوداً في جيش الخليفة، ومُنِيَ بفقدان الوحدة في قيادته، فكان له عدة قوات، كل يعمل على شاكلته وبرأيه الخاص، خلافاً لما كان عليه الحال لدى المغول، فقد كان النظام سارياً فيه بفضل توحيد قيادته العليا وحصرها بشخص السلطان، يؤازره ديوان شورى الحرب، وكان مؤلفاً من كبار قادة المغول وأمرائهم. من مهام هذا الديوان تقرير الخطط الحربية، ولم يكن للخليفة المستعصم ولا لقادة جيشه

(1) بغداد مدينة السلام، ص: 139.

(2) البداية والنهاية(13/ 196)، بغداد مدينة السلام، ص: 139.

عناية بفن الاستطلاع أو الوقوف على الحقائق في بلاد الأعداء، بل كان خليفة بغداد يجهل أو يتجاهل كل شيء من هذا القبيل، وأما المغول فكانت لهم عناية بالغة بهذا الفن، وكان لجيشهم عيون يعولون عليها في مواصفاتهم بحقائق الأحوال ومن تفننهم في ذلك استعمال طلائعهم العسكرية في التجسّس وربما تكرّر ذلك منهم سنين طويلة ويُعزى ظفرهم في كثير من الحروب إلى عوامل من جملتها: اهتمامهم بتسقط أنباء الأعداء، فوجدو أن الدولة العباسية حدودها شاغرة، وأنظمتها فاسدة وجيوشها خائرة، وبالجملة فقد ظهر الفساد في الدولة من قرنها إلى قدمها[1].

5 ـ ضعف عصبية الدولة: قامت الدولة العباسية على فكرة إسلامية شاملة ولم تكن لها عصبية قومية متحدة الأوصال وثيقة العرى وإنما كان الإسلام هو الذي جمع بين القوى القومية المتعددة الأجناس، وكان بنو العباس يسندون أمر وزاراتهم إلى رجل يختارونه من الموالي ويجعلون قيادة جنودهم إلى موالي وإلى عرب، ولكنهم كانوا تحت تأثير الظنون والريب التي تحوم حول عقولهم من استبداد الموالي بالسلطان فمتى شموا من وزير أو قائد من الموالي الخراسانيين رائحة من ذلك عاجلوه. وانظر ما فعله المنصور بقائد الجيوش العباسية أبي مسلم الخراساني وزيره الأول ـ ولأبي مسلم ما له من السابقة وحسن الأثر في إحياء الدولة، ولكن ذلك لم ينفعه أمام ريب أبي جعفر وغيرته على ملكه أن يشاركه فيه أحد.

ولا يمكن أن نبرئ أبا مسلم من قصد تحويل السلطان إلى قومه وليس بنو العباس في نظره إلا واسطة؛ ولما قتل أبو مسلم قام بالثأر له قائد فارسي على دين قومه من الوثنية سنباذ وجمع لذلك جموعاً عظيمة وكاد يزلزل بلاد خراسان لولا أن غولب بالعصبية العربية ـ الممزوجة بالعقيدة الإسلامية ـ فإن أبا جعفر أعد له جمهور بن مرار العجلي؛ وهو من رجال ربيعة، فكسر قوته وقام يطلب بثأره أيضاً الروانديّة، فقضى عليهم قائد من زعماء ربيعة وهو معن بن زائدة الشيباني.

والخلاصة أن الدولة العباسية ابتدأت على عصبية يتحد دينها وتختلف عناصرها ولبعض هذه العناصر أغراض لا تتفق مع سيادة الدولة وعظم شأنها ونفوذ خلفائها، وحدث صراع بين العصبيات الجزئية على حساب العصبية الكلية التي كان يجمعها الإسلام، وحدث صراع بين عصبية الأجناس والقوميات، أوجبت على بني العباس ـ بعد فقدان توازن القوى وما ترتب عليه من اختلال في النفوذ، أو المقام الديني ـ حفظ هذه الدولة

(1) خلفاء بني العباس والمغول أسقطوا بغداد، ص: 568، 569.

من الفناء مع هذا الضعف المتوالي، فدخل في عصبية الدولة العباسية الفرس وأصبحوا أصحاب النفوذ ثم الأتراك، ثم البويهيون ثم السلاجقة، كما مرَّ معنا وحاول خلفاء الدولة العباسية بعد ضعف السلاجقة أن يستيقظوا من السبات الطويل، وفوجئوا بخروج سيل المغول الجارف والعصبية القائمة عليها الدولة في حالة من التردي والضعف والهوان[1].

6 ـ **ضعف قيمة العهود:** الوفاء بالعهد خلق إسلامي أصيل حافظ عليه المسلمون وبذلوا دونه أموالهم وأنفسهم، شهد لهم بذلك الفرس والروم والبربر وغيرهم من الأمم، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء، الآية: 34]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل، الآية: 91]، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي شددت على وجوب الوفاء بالعهد، واعتبارها أساساً تقوم عليه الأمة الإسلامية وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون، ولما جاءت الدولة العباسية، وقد ظهرت على أيدي قادة الدولة حوادث متكررة تدل على أنه ليس للعهود في نظر خلفائها قيمة، فقد قتل المنصور في حياة السفاح ابن هبيرة بعد أن أمن أماناً لا شك ولا حيلة فيه، وكان الذي أشار بقتله أبو مسلم الخراساني مشيدَ الدولة العباسية، وكانوا لا يحبون أن ينفذوا أمراً دون مشورته، ثم أعاد المنصور هذه الرواية نفسها مع أبي مسلم بعد أن أمنه، ثم فعل مثل ذلك مع عمه عبد الله بن علي بعد أن أمنه، أعلن رضاه عنه ولذلك لما كاتب المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن وقال إنه يعطيه الأمان، أجابه محمد بقوله: وأما أمانك الذي عرضت فأي الأمانات هو؟! أمان ابن هبيرة، أم أمان أبي مسلم، أم أمان عمك عبد الله بن علي؟ والسلام.

وهذه كلمة شديدة الوقع سيئة التأثير، وصمة عار في تاريخ الدولة العباسية، فهذا الذي حصل في صدر الدولة كان مجرئاً لمن أتى بعد ذلك أن يحاولوا التخلص مما تقضي به العهود إذا رأوها مخالفة لمصالحهم، ولا سيما العهود التي تعقد لتولي الخلافة، فإنهم جعلوها من الأشياء التي يسهل حلها، وإن كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق، فعل ذلك المنصور مع عيسى بن موسى الذي عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور، فقدم عليه ابنه محمد المهدي وهذا التقديم وإن كان قد تم بطلب عيسى ورضاه، إلا أن نعرف كيف توصل المنصور إلى الحصول على هذا الرضا من الإساءات المتكررة لعيسى والتهديد المتواصل، حتى همَّ الرجل أن يخلع طاعة المنصور ويفتن

(1) الدولة العباسية، للخضري، ص: 480.

الأمة، وفي رأيي أنه لو وجد نصراء لفعل، وإن كان قد أثر عنه شعر يفيد أنه آثر مصلحة الأمة على مصلحة نفسه وهو قوله:

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما إما صغار وإما فتنة عمم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم كأس المنية لولا الله والرحم

وفعل الأمين ذلك مع أخيه المأمون فأدى ذلك للفتنة الشعواء التي كانت بين سنة (194هـ) إلى (198هـ) قاست الأمة في أثنائها مصاعب هائلة، ولم يوجد منهم من هاب ذلك الفعل محافظة على العهود والمواثيق، ومن البديهي أن أمثال هذه العهود ليست قاصرة على المتنازعين بل تتعداهم إلى القادة والأمراء، فهؤلاء ينشقون أيضاً ويستسهلون الإقدام على فك تلك القيود التي حلفوا الأيمان الوثيقة على الوفاء بها، وكتب الرشيد أماناً ليحيى بن عبد الله وأكد فيه غاية التأكيد على الوفاء له، ولما ارتاب منه، صار يبحث في الوجوه التي يبطل بها الإيمان، وجعل فقهاء وقته الواسطة في ذلك، فمنهم من أبت عليه شيمته ودينه أن يسترسل في الدين مع الأهواء، ومنهم سارع إلى هوى الخليفة، وصار يبدي الأوجه التي ينتقص منها الأماني، كل هذا من العيوب التي شقت عصا البيت وتعدت إلى فرقة الأمة فأضعفت عصبية الدولة وآل الأمر لخلفائها إلى أن تكون قوتهم مستمدة من المتغلبين عليهم[1].

7 ـ ضعف همم ملوك الأطراف: في مقابل قوة هؤلاء المغول وشدة بأسهم واجتماع كلمتهم، فقد ساهم في سرعة انتشارهم وسيطرتهم على مدن العالم الإسلامي وحواضره ضعف ملوك الإسلام في تلك الفترة بعامة، وانشغالهم عن الجهاد باللغو واللعب، وهذا المؤرخ ابن الأثير ـ يرحمه الله ـ ينعي على الإسلام وأهله، ويصف أحوال ملوكه قبيل وفاته بسنتين فيقول معلقاً على أحداث سنة (628هـ) ما نصه: «فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدين، بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته، وهذا أخوف عندي من العدو، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال، الآية: 25][2]، وليست أوضاع الخلافة العباسية ولا الخلفاء العباسيين بمعزل عن هذا الوضع المتردي، فقد انحسر سلطان الخلافة، وانكمشت حدود العباسيين، واستقل غيرهم بالسلطة في حكم أجزاء من

(1) الدولة العباسية، ص: 490.
(2) الكامل في التاريخ (12/ 497)، كيف دخل التتار بلاد المسلمين، ص: 39.

العالم الإسلامي، وهو أمر لم يكن سائغاً في ظل حكم الدولة الأموية، هذا فضلاً عن اشتغال الخلفاء العباسيين بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات[1]. هذه الحقائق يجليها لنا ابن كثير ـ عليه رحمة الله ـ في محاولة منه لتلمس أسباب نهاية الدولة العباسية على أيدي التتار فيقول: ولم تكن أيدي بني العباس حاكمة على جميع البلاد، كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار، فإنه خرج عن بنو العباس بلاد المغرب، وكذلك أخذت من أيديهم بلاد خراسان وما وراء النهر وتداولتها الملوك دولاً بعد دول، حتى لم يبق مع الخليفة منهم إلا بغداد وبعض بلاد العراق، وذلك لضعف خلافتهم واشتغالهم بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات[2].

ويقول قطب الدين اليونيني: «.. إنما قدموه على عمه الخفاجي لما يعلمون من لينه وانقياده وضعف رأيه، ليتبدوا بالأمور، وإذا صح ما ينسب إليه «ابن العبري» من ضعف الهمة وزهده بأقطار الخلافة ـ عدا بغداد ـ فهي طامة كبرى، إذ ينسب إلى «المستعصم» قوله: إن بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا أيضاً يهجمون عليَّ وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي[3]، وعلى كل حال إن ضعف المستعصم معروف حتى عند «التتار» ولذا كانوا يسمونه «الأبله»، ولم يقف هذا الضعف والهوان عند حدود دول المشرق الإسلامي، أو ينتهي بضعف مركز الخليفة العباسي وضمور سلطان الخلافة العباسية، بل جاوز ذلك إلى ملوك وسلاطين المسلمين في بلاد الشام ومصر، فقد ذكر ابن كثير ـ في أحداث سنة (658هـ): ـ أن سلطان دمشق وحلب «الملك النصر بن عبد العزيز»، وملك الكرك والشوبك «الملك المغيث بن العادل» قد عزموا على قتال المصريين وأخذ مصر منهم، ومعهما الأمير ركن الدين «بيبرس البندقداري»[4]، وقبل ذلك ذكر الذهبي أن عسكر الناصر سنة (656هـ) عليهم «المغيث» صاحب الكرك ليأخذوا مصر، فالتقاهم «المظفر قطز» وهو نائب للمنصور علي ولد المعز بالرمل وأسر جماعة أمراء فضرب أعناقهم[5]، وقبل ذلك كذلك وفي سنة (642هـ) كان حصار الخوارزمية على «دمشق» في خدمة صاحب «مصر» واشتد القحط حتى التقى بهم

(1) كيف دخل التتار بلاد المسلمين، ص: 40.
(2) البداية والنهاية (13/ 195)، كيف دخل التتار بلاد المسلمين، ص: 40.
(3) تاريخ مختصر الدول، ص: 255.
(4) البداية والنهاية (13/ 207)، كيف دخل التتار، ص: 42.
(5) سير أعلام النبلاء (23/ 181)، كيف دخل التتار، ص: 43.

«الشاميون»، ومعهم عسكر من «الفرنج» بين عسقلان وغزة؛ فانهزم الجمعان وحصدت الخوارزمية الفرنج واندك صاحب «حمص» ونهبت خزائنه وبكى وقال ـ معبراً عن سر الهزيمة ـ: قد علمت بأن لا نفلح لما سرنا تحت الصلبان، قال ابن الأثير واصفاً أحوال المسلمين في هذه الفترة بشكل عام: فمن سلم من المسلمين من هاتين الطائفتين «التتار والفرنج» فالسيف بينهما مسلول والفتنة قائمة على ساق[1]، وإذا علم ذلك كله أمكن تصور سرعة انتشارهم وضعف المقاومة أمامهم، وملء الرعب في قلوب الناس من حولهم، والله غالب على أمره[2].

8 ـ تنازلات سياسية دلت على الوهن العباسي: بعد أن كان كل ملوك الأرض وسلاطينها يخافون أو يحترمون الخلفاء العباسيين ويهابون دولتهم، فيقدمون لهم الجزية والهدايا أو يتهادون على قدم المساواة، تعبيراً عن الود وحسن الجوار ودفعاً للمخاطر، صار الخلفاء العباسيون المتأخرون هم الذين يقدمون الهدايا والأموال المقاربة للجزية لهولاكو، ليس تعبيراً عن الود أو حسن الجوار، إنما دفعاً لشره، وخوفاً من مداهمته، وقد كان المستنصر بالله يقدم هذه الهدايا والأموال والجواري والغلمان والخيول العربية الأصيلة إلى هولاكو، كما كان الخلفاء العباسيون المتأخرون يقودون إلى أصحاب الولايات والإقطاعات التي انفصلت عن الدولة، واستقل بها أصحابها ويتجنبون إغضابهم مع حزم وحنكة الخليفة المستنصر بالله، إلا أنه مع ذلك يصانع التتار ويهاديهم، فلما ولي المستعصم بالله أشير إليه بقطع أكثر الجند، وأن مصانعة التتار وحمل المال إليهم يحصل به المقصود، ففعل ذلك[3]، وكانت مصانعة التتار بطريقة تدل على الخور والضعف وعلى سوء إدارة الوزير العلقمي وخبثه وعماية القضاء وأمراء الجند وعدم فطنتهم، وحدث تواطؤ على إسقاط الدولة بعد إيقاع الخليفة في مأزق الخوف، والخلافة أصبحت هدفاً للمغول الذين أيقنوا بضعف روح الممانعة والمدافعة والمغالبة، أمام التنازلات السياسية غير المحكمة والخالية من الدراسة والنظر الإستراتيجي والتخطيط السليم، فكان ذلك من أسباب السقوط العباسي.

9 ـ تعدد مراكز القوى: لم يكن زمام الأمور في بغداد مركّزاً في يدٍ واحدة، بل كانت هناك سلطات مختلفة متعارضة كل منها يجور على السلطة الأخرى، ويتدخل في

(1) الكامل في التاريخ (12/ 361)، كيف دخل التتار، ص: 43.
(2) كيف دخل التتار، ص: 43.
(3) بغداد مدينة السلام وغزو المغول، ص: 141.

عملها، ولم تكن هناك رابطة تجمع الحكام ومن بينهم تصريف شؤون الدولة، بل كانوا متنازعين متباغضين، كل منهم ينقم على الآخر ويدبر ضده المؤامرات، ويسفه رأيه عند الخليفة، وفوق كل هؤلاء كان الخليفة مسلوب الإرادة ضعيف الشخصية، لا يستطيع أن يوقف كل واحد منهم عند حده، فترتب على ذلك أن اتسعت شقة الخلاف بين الساسة، واستحكم العداء بينهم، خصوصاً بين مؤيد الدين العلقمي وزير المستعصم وكان شيعياً، وبين مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير، وكان سنياً، فقد حدث قبيل حملة هولاكو خان أن جمع الدواتدار الصغير حوله كثيراً من الرعاع والمشاغبين والسفلة، وأخذ يهدد الأمن ويضع الخطط لخلع الخليفة وإحلال آخر محله، فلما علم الوزير بتلك المؤامرة، أخبر الخليفة على الفور بما يدبر ضده وطلب إليه أن يقضي على تلك الفتنة في مهدها، ولكن الخليفة ـ جرياً على سياسة التهاون وعدم المبالاة ـ لم يصغ إلى نصيحة وزيره وأمن الدواتدار على حياته، وأمر بذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة، ولا شك أن تصرف الخليفة على هذا النحو ليدل على سوء الحالة التي وصلت إليها الخلافة في هذا العهد، وإنها لا محالة قد أذنت بالسقوط والزوال، ومنذ وقوع هذا الحادث والوزير والدواتدار كلاهما يكيد للآخر عند الخليفة مما كان له أثره السيئ في اضطراب الأمور، وتقويض الدولة العباسية[1].

10 ـ احتلال خطوط الدفاع الأولى: وقع الخلفاء العباسيون في خطأ إستراتيجي كبير لما تركوا الدولة الخوارزمية تدفع الغزو المغولي وحدها، فكان من الطبيعي أن تنساب جيوش المغول نحو أملاك الدولة العباسية وتجتاح كل ما في طريقها، كان الواجب على الخلفاء العباسيين التصدي لمشاريع جنكيز خان وأولاده وأحفاده الهادفة للسيطرة على ديار المسلمين.

وهذا لم يحدث، وتركوا الدولة الخوارزمية تتآكل وتحترق أمامهم ولم يقوموا بواجبهم الجهادي والإسلامي نحو إخوانهم في العقيدة، إن صراع الأمم، وتصادم الحضارات والدول، يخضع لسنن الله الجارية في تحقيق الانتصار، ولا يعتمد على العواطف والانتساب إلى البيت النبوي الشريف، بل بالاقتداء بالرسول الكريم ﷺ في الأخذ بالسنن وإدارة الصراع مع المشاريع الغازية، وكان من المفروض أن ينتبه الخليفة العباسي المستعصم بالله ووزراؤه وكتاب ديوانه وحجابه وأمراء جنده إلى ما يحدث حولهم من محاولات هولاكو وهو يهدد ويتوعد ويسخر، خاصة بعد أن تمكن هولاكو

(1) المغول، للصياد، ص: 253.

من السيطرة واكتساح الكثير من أقاليم الخلافة العباسية وتمكن من عزلها عنها، فإذا بالخلافة تعاني من عملية تجريد الخليفة العباسي من كل حلفائه أو حماته المتاخمين لحدود العراق التي أصبحت قريبة جداً من الخطر الدائم، كما تعاني من ضعف سيطرة الخليفة على أصحاب الولايات بفعل خوفهم من هولاكو، فتفشت الخلافات بين الخلافة العباسية والولايات المتاخمة وانحازوا إلى هولاكو يصانعونه لكف شره، فكانوا يرسلون إليه الهدايا والأموال، حتى إنه في سنة (655هـ) توجه العزيز بن الملك الناصر إلى هولاكو بهدية حسنة جليلة وكان في خدمته سيف الدين إبراهيم الحاكي الحافظي[1]، لقد كان تحرك هولاكو بجيشه المغولي عسكرياً سريعاً ومنظماً ومكشوفاً، وبعد رسائل التهديد أيضاً، وكان الخليفة المستعصم مستغرقاً في قداسة البيت العباسي وأحلامه التاريخية، ورد بهذا الرد العجيب الغريب في تمجيد بني العباس، فقال: لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين على الأحوال، إذ أن كل ملك ـ حتى هذا العهد ـ قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد، كانت عاقبته وخيمة، ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين، فإن أبناء هذا البيت محكم للغاية وسيبقى إلى يوم القيامة.. إلى أن قال: فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر، فاشتد غضب هولاكو خان بسبب هذا الكلام وأعاد الرسل قائلاً:

ـ اذهب واصنع من الحديد المدن والأسوار.
ـ وارفع من الفولاذ الأبراج والهياكل.
ـ واجمع جيشاً من المردة والشياطين.
ـ ثم تقدم نحوي للخصام والنزال.
ـ فسأنزل لك ولو كنت في السماء.
ـ وسأدفع بك غصباً إلى أفواه السباع[2].

كان الأحرى بالخليفة المستعصم بالله وبطانته أن يتشاوروا في الأمر لدفع هذا البلاء بأسلم الطرق وأقومها، وأقواها، والتي من أهمها دعم الخطوط الأمامية بالسلاح والرجال والعتاد لكي تقاوم المغول، ولكن المصالح الشخصية والصراعات الداخلية الدائرة والمؤامرات الخبيثة، كانت كلها تدور في فلك الجهالة السياسية التي يتمتع بها

(1) بغداد مدينة السلام، ص: 159.
(2) جامع التواريخ، نقلاً عن: بغداد مدينة السلام، ص: 152.

الخليفة ورجاله[1]. إن زحف هولاكو بجيوش المغول، ليس جديداً وإنما هو امتداد لعدد من السنين وهذا الامتداد الزمني ـ لا شك ـ لم يخف على الخليفة وساسة البلاد، وكانت أحداث المغول ووقائعهم بالمسلمين تجلب انتباه الغافل ويعلمها القاصي والداني، كان الحدث الجلل وهو الغزو المغولي يقتضم أجزاء الدولة ويقسمها ويمزقها شر ممزق، ولا وجود لمشروع مقاوم للغزو ويقوده الخليفة، بل الحمى مستباح نتيجة للخور والجبن والجهل السياسي والعسكري الذي تميز به الخليفة المستعصم بالله العباسي، فترك خطوط الدفاع الأولى للأمة تواجه مصيرها بدون دعم مادي و معنوي يذكر.

11 ـ دور النصارى في سقوط الدولة العباسية: كان جيش هولاكو خان في غزواته الكبرى ضد أراضي الدولة الإسماعيلية، وأراضي الخلافة العباسية والشام وفلسطين، يضم بين صفوف قواته أعداداً كبيرة من المسيحيين النسطوريين وعلى رأسهم قائده الكبير «كدبوقا نوبان»، وكان المغول يقومون بفتوحاتهم وغزواتهم لأقطار شتى من المحيط الهادي شرقاً، والهند الصينية في الجنوب الشرقي إلى الأراضي البولندية، وقلب أوروبا غرباً، ومن سيبيريا بحر البلطيق شمالاً، إلى شبه القارة الهندية وشمال الجزيرة العربية جنوباً، بدافع المكاسب المادية ولتوسيع رقعة أراضيهم في سبيل تكوين إمبراطوريتهم العالمية التي كانوا يتوقون بتلهف إلى تكوينها[2]، وكان من ضمن الجيوش الغازية لبغداد المسيحيون «الجرجانيون» الكرج حيث أسهم أولئك بكتائب عسكرية وغيرها من مؤن وعتاد حربي، وكان ذلك من ضمن الانقياد للإمبراطورية المغولية التي فرضت على أتباعها التبعية والخضوع، تحت سلطان القاآن في قراقوم والتي فرضت عليهم المساهمة في حملات أسيادهم العسكرية ضد أعدائهم[3]، وقد نال المسيحيون من سكان بغداد احترام المغول وحفظت أعراضهم وأموالهم ولم يتعرضوا لدمار المغول، بل حفظت منازلهم وحرست من قبل جنود المغول أثناء اجتياح بغداد، وقد التجأ بعض المسلمين إلى بيوت النصارى في بغداد هرباً من السيف المغولي، وقد نجا من نال الحماية المسيحية في بغداد من مذبحة المغول الفظيعة[4].

12 ـ دور الحكام المسلمين في إسقاط الدولة العباسية: عندما توجه هولاكو بجيوشه للقضاء على الإسماعيلية والدولة العباسية، كانت كتائب بعض حكام المسلمين

(1) بغداد مدينة السلام، ص: 160.
(2) سقوط الدولة العباسية، ص: 320. (3) المصدر نفسه، ص: 323.
(4) المصدر نفسه، ص: 324.

تحت لوائه، حيث تغلغلت أسباب الضعف المعنوي في نفوس أولئك الأمراء والتي منها:

- ضعف الوازع الديني عند كثير من الأمراء.
- الأنانية وحب الذات.
- الجبن والخور الذي أصاب كثيراً من الناس.
- الحرص على المصالح الدنيوية.
- ضعف عقيدة الولاء والبراء.

لقد ارتكب بعض حكام وأمراء المسلمين خيانة عظمى للأمة الإسلامية ولدينهم وعقيدتهم وذلك بالمشاركة الفعالة مع المغول في حملتهم الشنيعة على الدولة العباسية، ومن أشهر هؤلاء الحكام:

أ - براق حاجب وخلفاؤه: كان حاكم كرمان والأراضي التابعة لها، براق حاجب، من أول الحكام المسلمين الذين ساهموا مع المغول إبان حملتهم على بغداد، ومن المعروف أن إقليم كرمان كان جزءاً من أراضي الدولة الخوارزمية، وكان هذا الإقليم يحكمه الأمير غياث الدين - الابن الثاني للسلطان محمد خوارزمشاه - وقد استناب هذا الأمير شخصياً، براق حاجب هذا، ليقوم بإدارة شؤون الإقليم نيابة عنه.

وبعد الخلاف الذي نشب بين الأخوين، غياث الدين وأخيه الأكبر جلال الدين، هرب الأول إلى إقطاعه السابق «كرمان» حيث كان به نائبه الأول على كرمان، براق حاجب، فما كان من الأخير إلا أن قام باغتيال سيده، فقطع رأسه وأرسله إلى «القاآن» المغولي «أكتاي» في «قرا - قروم» وأعلن خضوعه تحت سلطان المغول، وجعل من نفسه جاسوساً يطلع أسياده الجدد بأخبار الأقطار الغربية وما كان يجري فيها من تطورات سياسية وعسكرية، تخدم غرض المغول وتوسعهم المستمر في سبيل إنشاء إمبراطوريتهم العالمية، فقد أخبرهم بنشاطات سيده السابق جلال الدين منكبرتي، وقدم لهم معلومات هامة ساهمت في القضاء على الدولة الخوارزمية، وظل براق حاجب على ولائه التام للمغول وشارك بجنوده في حملات التتار ضد ديار المسلمين، فشارك في حملة المغول ضد أراضي السلاجقة في آسيا الصغرى. وبعد وفاة براق حاجب في سنه (632هـ/ 1234م) أصبح خلفاؤه من بعده وهم ركن الدين خواجة الحق (643 - 650هـ) (1234 - 1252م) وقطب الدين محمد (650 - 655هـ/ 1252 - 1257م)، يتنافسان

فيما بينهما في تقديم الولاء والطاعة للمغول، كما أصبحا متنافسين على حكم إقليم كرمان، وأخذ كل واحد من جانبه يذهب إلى منغوليا ويعلن أنه سيكون أكثر من منافسه خضوعاً، وطاعة «للقاآن» في «قرا ـ قروم» ويطلب أن يقبله المغول نائباً لهم «على أراضي ولاية كرمان» إذا ما أنعموا عليه بحكم ذلك الإقليم[1].

وعندما وصل المغول إلى منطقة شرق إيران، في حملتهم الغربية الكبرى بقيادة هولاكو، وشرعوا في هجومهم العام الكاسح، ضد أراضي وقلاع الدولة الإسماعيلية قام قطب الدين محمد، حاكم كرمان في ذلك الوقت، بإرسال قوات خاصة من بلده لتشارك في الحرب تحت رعاية المغول، وقد كانت قوات حكومة كرمان المسلمة مع قوات «بَرْد» في القوة والكثرة بحيث كانت تكون كتيبة عسكرية مستقلة بذاتها وأصبحت تحت قيادة هولاكو، وتشارك في حربه، ضد حكومة العباسيين، والمسلمين في العراق، والجزيرة والشام[2].

ب ـ أتابك إقليم فارس: أعلن أتابك فارس خضوعه تحت السلطة المغولية، في نفس الوقت الذي خضع فيه جاره، «براق حاجب كرمان» لنفوذهم وحافظ على ولائه للمغول وكان يرسل ممثليه إلى البلاط المغولي في «قرار ـ قروم» بصفة دائمة وفي كل مناسبة، وعندما وصل هولاكو ـ على رأس حملة المغول الغربية ـ إلى إقليم ما وراء النهر، ذهب إلى هناك أتابك فارس نفسه أبو بكر (حسب رواية الجورجاني أو ابنه سعد «حسب رواية رشيد الدين» للترحيب بمقدم القائد المغولي، والبذل من نفسه ما يستطيع تقديمه للمغول في حملتهم هذه، وأرسل ـ فيما بعد ـ كتيبة عسكرية خاصة يتكون جل أعضائها من الفرسان، لتلتحق بجيش هولاكو ليس فقط ضد الإسماعيليين والخلافة العباسية، بل ليشاركوا مع المغول في حروبهم الهمجية ضد المسلمين في الجزيرة وأراضي الشام ومصر، وبعد أن أسقط المغول والمسلمون وغيرهم بقيادة هولاكو خان بغداد وأطاحوا بالدولة العباسية، قام حاكم إقليم فارس المسلم، هذا بإرسال ابنه سعد ابن أبي بكر، إلى القائد المغولي، ليهنّأه بنجاح حملته ضد الخليفة، ويتلقى أوامره التالية، ثم لكي يقوم بخدمته نيابة عن والده[3].

(1) سقوط الدولة العباسية، ص: 354.

(2) المصدر نفسه، ص: 355.

(3) المصدر نفسه، ص: 357.

جـ ـ بدر الدين لؤلؤ وأتابكية الموصل: وهو الملقب بالملك الرحيم، ملك الموصل نحواً من خمسين سنة، وهو الذي أزال الدولة الأتابكية عن الموصل ـ وهم أسياده ـ وكان فيه نزعة تشيع إذ كان يبعث في كل سنة إلى «مشهد علي» قنديلاً ذهباً زنته ألف دينار، قال ابن كثير: وهذا دليل على قلة عقله وتشيعه[1]، وأما أصله فكان أرمينياً، حتى نقل عنه الذهبي أنه كان يحتفل لعيد الشعانين لبقايا فيه من شعار أهله فيمد سماطاً عظيماً للغاية ويحضر المغاني، وتدار في غضون ذلك أواني الخمور ويتخاطف الناس ما ينثره من الذهب في ذلك اليوم، فَمُقِت لإحياء شعار النصارى وقيل فيه:

يُعظِّم أعياد النصارى محبة ... ويزعم أن الله عيسى ابن مريم
إذا نبهته نخوة أريحيَّة ... إلى المجد قالت أَرْمَنِيَّتُهُ: نم[2]

وأما عن مساهمته في دخول التتار بلاد المسلمين: فقد ذكر الحافظ ابن كثير أن جنود التتار حين نازلت بغداد سنة ست وخمسين وستمائة جاءت إليهم إمداد الموصل، يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتار ومصانعة لهم[3]، وقال الذهبي عنه: وكان يصانع التتار وملوك الإسلام[4]، بل نقل بعض المؤرخين أن «صاحب الموصل» كان من بين المحرضين لهولاكو على قتل الخليفة العباسي، وحين انفصل هولاكو خان عن بغداد ـ بعد الوقعة الفظيعة ـ سار الملك الرحيم إلى خدمته طاعة له ومعه الهدايا والتحف، فأكرمه واحترمه ورجع من عنده فمكث بالموصل أياماً ثم مات[5]. ونقل الذهبي: أنه قلد هولاكو جوهرة يتيمة قدمها هدية له وطلب أن يضعها في إذن هولاكو، فاتكا ففرك أذنه وأدخل الحلقة في أذنه، وأن الملك الرحيم عاد إلى بلاده «الموصل» متولياً من قبل هولاكو، وقرر عليه مالاً يحمله[6]، بل زاد مستوى العلاقة بين الملك الرحيم وأسرته وبين التتار حتى بلغ المصاهرة، فقد تزوج ولده الملك الصالح إسماعيل ابنة هولاكو، لكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ أغضب الصالح إسماعيل ابنة هولاكو وأغارها، فنازلت التتار الموصل،

(1) البداية والنهاية (13/ 203).
(2) سير أعلام النبلاء (23/ 357).
(3) البداية والنهاية (13/ 190).
(4) سير أعلام النبلاء (23/ 356).
(5) البداية والنهاية (13/ 203)، كيف دخل التتار بلاد المسلمين، ص: 52.
(6) سير أعلام النبلاء (23/ 357).

واستمر الحصار عشرة أشهر، ثم أخذت، وخرج إليهم الصالح بالأمان فغدروا به واستباحوا الموصل[1].

د ـ السلاطين السلاجقة في آسيا الصغرى: كان من جملة المسلمين الذي دخلوا تحت لواء هولاكو عند غزوه للدولة العباسية، سلاطين السلاجقة في آسيا الصغرى، وكان التنافس بين الأمراء والسلاطين السلاجقة في آسيا الصغرى، على أشده، في تقديم الخضوع والطاعة للخان المغولي، فقد كان عز الدين كيكاووس الثاني، وركن الدين قيليج أرسلان الرابع، يتنافسان حتى في الخضوع الذليل للمغول، وسلكا سبلاً شتى في إذلال النفس لتقديم فروض الطاعة المطلقة أمام السلطات المغولية ليحوزوا على رضاتها، فقد ذهب ركن الدين شخصياً إلى منغوليا، وكان من جملة الحكام الذين حضروا في بلاط الخان «كويوك» للتعبير عن ولائهم ووفاهم والإخلاص المطلق لذلك الخان في منغوليا[2]، وعندما وصل هولاكو خان إلى إقليم ما وراء النهر، وهو في طريق تنفيذ حملته ضد طائفة الإسماعيليين في إيران والخليفة في العراق وأراضي الشام ومصر، ذهب ذلك المتنافسان السلجوقيان «عز الدين وركن الدين» وحضرا عنده للتعبير له عن وفائهما، وكل واحد منهما يمعن في التذلل، وأنه على أتم الاستعداد لتقديم خدمات للمغول أفضل مما يقدمه خصمه، لعله يحظى برضى الأمير القائد.

هـ ـ بعض المشاركين الآخرين: لم يكن هؤلاء الحكام المسلمون هم الوحيدين الذين شاركوا مشاركة فعَّالة في حملة المغول ضد مسلمي العراق والجزيرة والشام وفلسطين، بل كان هناك مسلمون آخرون، فرادى وجماعات من الأقطار الإسلامية قد جنَّدهم حكام المغول أو النواب الممثلين للسلطة المغولية «مسعود يلواتش» «حاكم إقليم التركستان وأراضي ما وراء النهر» «وأرقون آقا» «حاكم المغول على إقليم إيران» وقد جنَّد هؤلاء الحكام أعداداً كبيرة جداً من المسلمين ليضموا مع القوات الغازية، تحت لواء هولاكو خان. بناءً على ذلك، نجد أن أعداداً هائلة من المسلمين، التحقت بحملة المغول مثل «كديوقانويان» و«بايجونويان»، وكان نصر الدين الطوسي، والمؤرخ علاء الدين عطا ملك الجويني، والمنجم حساب الدين، يتصدرون قائمة الأعداد الكبيرة من المسلمين الذين انضووا تحت خدمة المغول، لغزو الدولة العباسية والأقطار الإسلامية

(1) سير أعلام النبلاء، (23/ 53).
(2) سقوط الدولة العباسية، ص: 367.

جنوب غرب آسيا، لقد ساهم أولئك المسلمون في الإطاحة بالدولة العباسية وتقوية الإمبراطورية المغولية[1].

13 ـ إبعاد الكفاءات النادرة: كان المستنصر بالله يعتبر من الخلفاء العباسيين الذين حاولوا بعث الدماء الحارة في جسم الخلافة، وإعادة بعض الهيبة والقوة لها، وقد تمكن من تطوير الجيش العباسي وبلغ عدد جيشه مائة ألف[2]، وكان ذا همة عالية، وشجاعة وافرة ونفس أبية، وعنده إقدام عظيم. وقصدت التتار بلاد العراق في أيامه فلقيهم عسكره وانتصف منهم وهزمهم[3].

وكان للخليفة المستنصر بالله أخ يمثل شخصيته، وتحسباً من احتمال اتباعه سيرة المستنصر بالله وقراراته، فيما إذا جاء إلى الخلافة قرر رجال الدولة من الوزراء وأمراء الجند أن يختاروا شخصاً لا يتمتع بهذه المزايا التي يتمتع بها أخو الخليفة المعروف «بالخفاجي»، لأن الخفاجي شاب فتى في عنفوان الشباب وفتوته، وحدة الذكاء وقوته، وعمق الشعور بالمسؤولية. والخفاجي يزيد على أخيه الخليفة المستنصر بالله، في الشهامة والشجاعة، وكان يقول: إن ملكني الله تعالى أمر الأمة لأعبرن بالعساكر نهر جيحون وانتزع البلاد من يد التتار وأفنيهم قتلاً وأسراً وسبياً. فلم ير الدوادار والشرابي ـ وكانا غائبين على الأمر ـ ولا بقية أرباب الدولة تقليده الخلافة خوفاً منه، ولما يعلمون من استقلاله بالأمر واستبداده بالتدمير دونهم وآثروا أن يليها المستعصم بالله لما يعلمون من لينه وانقياده ليكون الأمر إليهم، فاتفق رأي أرباب الدولة على تقليد المستعصم بالله الخلافة بعد أبيه فتقلدها واستبدوا بالتدبير[4]، وأسندوا الأمر إلى غير أهله.

14 منافسة العلويين: كان أول صدع صدعت به الدولة العباسية خروج محمد ابن عبد الله المعروف «بالنفس الزكية» بالمدينة، وكان كثير من أهل خراسان ينتظر قيامه. ولولا ما ظهر من شجاعة أبي جعفر المنصور ومضاء عزيمته وأخذه بالاحتياط في مصادرة موارده لزلزلت جوانب الخلافة العباسية، ولكن يقظة المنصور وحزمه قضت على محمد بن عبد الله وعلى أخيه إبراهيم الذي ثار بالبصرة، وكانت نتيجة ذلك أن اشتدت ريبة العباسيين من بني عمهم، وضيقوا عليهم وشددوا المراقبة على المعروفين

(1) سقوط الدولة العباسية، ص: 368 ، 369.
(2) ذيل مرآة الزمان، لليونيني، ص: 254 بغداد مدينة السلام، ص: 136.
(3) بغداد مدينة السلام، ص: 136.
(4) بغداد مدينة السلام، ص: 136.

منهم وأرهقوا الجند في استطلاع أخبارهم، فتباعد الأمر واشتدت الجفوة، واشتد تطلع العلويين إلى قلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج الضيق الذي نالهم وساروا كالطائر المحبوس في قفصه يحاول التخلص منه على غير هدى، كما فعل الحسين بن علي الذي ثار بمكة في مدة الهادي سنة (169هـ)، فحيل بينه وبين مراده، وقتل بفخ بالقرب من مكة، وأفلت من تلك الموقعة إدريس بن عبد الله وأخوه يحيى، فاتجه الأول غرباً ماراً بمصر ومخترقاً شمال أفريقيا حتى أتى المغرب الأقصى، فحدب عليه من به من الأمازيغ وبايعوه بالخلافة، وأسس هناك دولة الأدارسة في طرف الدولة من المغرب.

واتجه الثاني نحو المشرق وذهب إلى نواحي الديلم، إلا أن قربه من مركز الخلافة حتم عليه الفشل، وقد أظهرت حوادث هذين الأخوين أن من موالي العباسيين من هواه مع العلويين، كواضح مولى بني العباس الذي كان يريد مصر، فإنه هو الذي سهل لإدريس المرور من أرض مصر مع معرفته به، وجعفر بن يحي البرمكي الذي سهل ليحيى بن عبد الله طريق الإفلات من يد الرشيد، فكان ذلك مما دعا الرشيد إلى التشديد والتضييق على من يتهم بالميل إليهم، وجاء بموسى الكاظم بن جعفر الصادق إلى بغداد ليقيم تحت نظره.

وظهر الجرح بجنب الدولة العباسية، واجترأت أمة من الأمم الإسلامية، وهي أمة البربر بالمغرب الأقصى، أن تخرج عن طاعتهم معتقدة أنها نالت حظاً أعلى من حظ سائر الأمم الإسلامية، لأنها ظفرت برجل من آل البيت النبوي ومن أبناء ابنته. واضطر الرشيد أن يزرع لأفريقيا دولة الأغالبة ومقرها القيروان، كما يفعل من رأى حريقاً بجزء من داره يجتهد أن يفصل بين ما تناولته النار وبين سائر البيت. وهذا ما فعله الرشيد.

وجاء المأمون، فرأى خطر العلويين محدقاً بالدولة، رأى كثيراً من أبناء الدعوة ورجال الدين يميلون إلى العلويين، ويكرهون ما يناله من الشر، فأراد أن يتقرب إليهم ببعض ما يرغبون، فيكسر من حدتهم ويضعف من قوتهم فاختار منهم علي الرضا الذي يتولاه أكثر شيعة آل علي وولاه عهده، ويظن أنه فعل ذلك إرضاء للحسن بن سهل وزيره الأكبر ومدبر أمره وصاحب الفضل الأعظم في سوق الخلافة إليه وإخراجها عن أخيه الأمين، ولكن رأى أن النتيجة لم تكن على ما يرغب، فإنه وإن أرضى العلويين بهذا العهد، فقد أغضب العباسيين أصحاب الدعوة فثاروا ضده ببغداد وخلعوه، واختاروا من بينهم عمه إبراهيم بن المهدي، فلم يكن أمامه ما يربأ به هذا الصدع إلا أن احتال في التخلص من الحسن بن سهل بأن وضع له قوماً تناولوه بالسيوف ثم مات بعقب ذلك علي الرضا، فنسب قوم ذلك إلى المأمون أيضاً، والقرائن تساعدهم ولكن

ليس عندنا من الأدلة ما يقوي هذه التهمة، وعادت الأمور بعد موت هذين إلى مجراها ورجع أهل بغداد إلى المأمون وانحرفوا عن عمه، وظل المأمون بعد ذلك على ولاء للعلويين حتى إذا رأى منهم الميل إلى الخروج والثورة شرع يعاملهم بمثل ما كان يعاملهم به أبوه، بعد ثورة اليمن فأمر ألا يدخلوا عليه واضطر بأن يجاري أباه في الاحتياط، فأسس دولة باليمن تشبه دولة الأغالبة بأفريقيا، وهي الدولة الزيادية والغرض من الدولتين واحد[1]، واتبعوا طريقة الحجر على أئمة الشيعة، وأمرهم إياهم بالإقامة بمرأى منهم في بغداد أو في سامراء بعد اختطاطها، ولم يكن الخلفاء العباسيون على سيرة واحدة في التعامل مع العلويين، ودخل القرامطة باسم محبة آل البيت فزلزلوا جوانب الدولة، وقام الفاطميون فاستولوا على إفريقية، وعلى الجزائر ومناطق من الشمال الأفريقي ومدوا سلطانهم على مصر وسوريا والحجاز واليمن وشواطئ الفرات، وكادت نارهم تلفح وجه الدولة العباسية ومما زاد الأمر بلية أن بني بويه الذين استولوا على بغداد في منتصف القرن الرابع، كانوا شيعة فأباحوا للشيعة الظهور في بغداد بما يشتهون من العادات التي كانوا يفعلونها يوم عاشوراء، فقد كانوا يجعلونه يوم حزن، حتى تخرج النساء فيه حاسرات نادبات لاطمات ينعين الحسين بن علي ﷺ وغير ذلك من العادات. وصار الناس يتقربون إلى السلطان بالتشييع، وفي أوائل القرن السادس ظهرت فتنة الباطنية بفارس وبالشام فأرهقوا الناس وأفسدوا الدول وتمكنوا من اغتيال بعض خلفاء بني العباس واستمر هذا النزاع السياسي بمصر حتى سقطت الدولة الفاطمية على يد ـ نور الدين محمود زنكي ـ بواسطة أحد قادته الكبار «صلاح الدين الأيوبي».

واستمر النزاع بين العباسيين وبعض أتباع آل علي من أول خليفة إلى آخر خليفة، وكان ذلك سبباً في ضعف الدولة العباسية، وهذا السبب ساهم في ضعف عصبية الدولة العباسية[2]، ثم زوالها.

15 ـ الترف وأثره في زوال الدولة العباسية: جاء ذكر الترف والمترفين مراراً في كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وفي سنّة رسوله ﷺ، وفي آثار من سلف. فمما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء، الآية: 16]. المترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم، ويجدون الراحة، ينعمون بالدعة وبالراحة

(1) الدولة العباسية، للخضري، ص: 485.

(2) الدولة العباسية، ص: 488.

وبالسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتأسن وترتع في الفسق والمجون، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتَلِغُ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم، عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي وتفقد حيويتها، وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتُطوى صفحاتها. والآية تقرر سنة الله هذه، فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك فكثر فيها، فعم فيها الفسق فتحللت وترهلت فحقت عليها سنة الله وأصابها الدمار والهلاك، وهي المسؤولة عما يحل بها، لأنها لم تضرب على[1] أيدي المترفين، ولم تصلح نظامها الذي يسمح بوجود المترفين. إن الله ﷻ قد جعل للحياة البشرية نواميس لا تتخلق، وسنناً لا تتبدل، وحين يوجد الأسباب تتعدد النتائج[2]. وهذا نص صريح قاطع في أن هلاك الأمم وضعف شأنها وانحلال قواها إنما يكون بالشهوات المتحكمة والأهواء المردية، وسيطرة ذلك على الذين يوجهونها وفي الآية الكريمة ما يشير إلى أن الترف هو الذي يؤدي إلى الفسق، وأن الفسق هو الذي يؤدي إلى الدمار، فعلى الذين يعملون لرفعة الأمة أن يتجهوا إلى الدعامة التي تقوم عليها وهي قوة النفس وسيطرة الإرادة المؤمنة على الأهواء الجامحة، وأنه كلما كان الترف المردي كانت القوى المنحلة، وكلما كانت الإرادة القوية والعزيمة الصادقة والإخلاص المنير كان النصر المبين والتأييد من الله رب العالمين[3].

وللترف أثر بالغ السوء في الدول والشعوب، بل هو مِعْوَلُ هدم لطاقاتها وقدراتها، حيث يغري بالإخلاد إلى الأرض والاغتراف من المباذل والشهوات والخوض في سفاسف الأمور ودناياها، والتعلق بالمناصب والجاه والمال، ونسيان المعاني العلية، وعدم المخاطرة بالنفس في الجهاد في سبيل الله تعالى، والنفور من ارتكاب الصعب من الأمور، لا شيء إلا لأنه صعب على النفوس، والميل إلى السهل من الأعمال مهما قادت إلى ضعف وهوان[4]، لقد أضعف الترف الدولة العباسية إضعافاً متدرجاً حتى بلغ غايته بسقوطها أمام التتار، ذلك السقوط المخزي المريع الذي لم يكن مثله سقوط في تاريخ الدولة الإسلامية، وانظر إلى ما كانوا يصنعون، تعرف لماذا سقطوا وذلوا وهانوا، فهذا

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، (4/ 2217).
(2) المصدر نفسه، ص: 18.
(3) مجلة لواء الإسلام العدد الخامس، ص: 259 أبو زهرة.
(4) الترف وأثره في الدعاة والمصلحين، ص: 22 محمد موسى الشريف.

المأمون بن هارون الرشيد وهو من آخر أقوياء الخلفاء قد عقد على بوران بنت الحسن بن سهل وزيره، فماذا صنع في حفلة عرسه؟ وإن شئت قلت ماذا صُنع له؟

جرت تلك الحفلة في منازل الحسن بن سهل السرخسي، التي كانت بفم الصلح بالقرب من مدينة واسط، وفم الصلح اسم نهر كبير كان فوق واسط عليه عدة قرى، وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون، وفيه بنى المأمون ببوران، تزوجها المأمون لمكانة أبيها عنده، واسمها الحقيقي خديجة، وبوران لقبها، احتفل أبوها وعمل الولام والأفراح ما لم يعهد مثله في عصر من عصور الجاهلية والإسلام، فقد سافر المأمون وحاشيته ورجال دولته من القواد والكتاب والوجوه إلى فم الصلح، فنثر الحسن بن سهل بنادق المسك على رؤوسهم، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفاة دواب وغير ذلك، وكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة، فإذا علم ما في الرقعة مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها، سواء كان ضيعة أو ملكاً آخر، أو فرساً أو جارية، أو مملوكاً، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه، وكانوا خلقاً لا يحصى، حتى على الجماليين والمكارية[1] والملاحين وكل من ضمه عسكره، ولم يكن في المعسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه. وذكر الطبري، أن المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يوماً، يعد له في كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف درهم[2]، وكان رحيل المأمون نحو الحسن بن سهل، أي إلى فم الصلح، لثمان خلون من شهر رمضان سنة عشر ومائتين وفرش الحسن للمأمون حصيراً منسوجاً بالذهب فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلئ كثيرة[3]، ودخل المأمون على بوران الليلة الثالثة من وصوله إلى فم الصلح، فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب، فأمر المأمون أن تجمع، وسألها عن عدد الدر: كم؟ فقالت: ألف حبة، ووضعها في حجرها وقال لها: هذه نحلتك[4]، وسلي حوائجك، فقالت لها جدتها: كلمي سيدك فقد أمرك، فسألته الرضى عن إبراهيم بن المهدي، عمه، والسماح

(1) المكارية: الذين يستأجرون لقضاء الحاجات.
(2) أي خمسين مليون درهم، وهذا مبلغ هائل ذلك الوقت.
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن: الترف، د.محمد موسى الشريف، ص: 34.
(4) نحلتك: عطيتك.

بالحج لأم جعفر، وهي الست زبيدة، فقال: قد فعلت، فألبستها أم جعفر البدلة اللؤلؤية، وأوقدوا في تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون منا في تور من ذهب[1] فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال: هذا إسراف[2]، يا سبحان الله والذي مضى كله لم يكن إسرافاً[3]. وقد أمر المأمون للحسن عند منصرفه بعشرة آلاف ألف درهم[4]، وأقطعه فم الصلح، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه،وقد كان الحسن كثير العطاء للشعراء وغيرهم، فقصده بعض الشعراء وأنشده:

تقوم خليلتي لما رأتني أشد مطيتي من بعد حل
أبعد الفضل ترتحل المطايا فقلت نعم إلى الحسن بن سهل

وقد كانت حياتهم مليئة بالترف والإخلاد إلى الأرض والرضى بمباهجها، والتوسع في ذلك توسعاً عظيماً، إذ بنوا بغداد على هيئة عظيمة، وتوسعوا في بناء القصور ذات الأواوين[5] الضخمة، وتفننوا في البناء والزينة، والزخارف والنقوش، والستائر والبسط والأثاث والتماثيل والتحف والأواني، وفي الطعام والشراب، كما تألقوا في الجواهر والزينة والطيب والملبس والثياب، متأثرين بالأزياء الفارسية، واهتموا بأدوات الترويح واللعب، كسباق الخيل، وسباق الحمام الزاجل، ولعبة الصولجان والشطرنج والنرد والصيد بالبزاة، والصقور والشواهين والكلاب والفهود، وهذا يدل على الترف والبذخ الذي كان يتمتع به الخلفاء وأبناء البيت العباسي، والوزراء والقواد، وكبار رجال الدولة، والتجار، وبعض الشعراء والكتاب والمغنيين والعلماء، وأما الشعب فيكدح ويعيش في بؤس وشقاء، ويتحمل أعباء الحياة إلى غير حد، وكانت خزائن الدولة مملوءة تحمل إليها الأموال والذهب والفضة من جميع أرجاء الدولة ونروي في ذلك روايات كثيرة نبين مدى الثراء والترف والنعيم ومظاهر الإنفاق على الجواري والقيان والمغنين والحفلات والحاشية والأعوان، وتبين جود الخلفاء والوزراء، والولاة والقادة، وكرمهم وعطاياهم للشعراء وغيرهم ونفذوا إلى طائفة من الآداب، كآداب المائدة واقتبسوا كثيراً منها عن الفرس، وآداب المساهرة والمنادمة، وكان هذا البذخ وما صاحبه من اعتصار الشعب

(1) تور من ذهب: إناء من ذهب.
(2) الترف، محمد موسى، ص: 35.
(3) المصدر نفسه، ص: 35.
(4) المصدر نفسه، ص: 35.
(5) تاريخ الطبري، نقلاً عن: الترف، ص: 37.

من الأسباب في كثرة الثورات على العباسيين، ولم يكن هذا شأن كل خلفاء بني العباس، لكن كان هذا السمة الغالبة لأكثرهم[1].

فكان من الطبيعي ـ والحال هكذا ـ أن تسقط دولة بني العباس أمام زحف المغول، وإليك هذا المنظر الذي ذكره ابن كثير: في الوقت الذي كان التتار يحاصرون بغداد ويحيطون بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب، ذكر أن جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه وكانت من جملة حظاياه وتسمى «عرفة»، فجاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه وإذا عليه مكتوب: إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم[2]، وأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز وكثرة الستائر على دار الخلافة لكن الأمر أكبر من ذلك وأعظم[3].

لقد أتى على العالم الإسلامي عهد في التاريخ كانت الحياة فيه تدور حول فرد واحد، وهو شخص الخليفة أو الملك وحوله حفنة من الرجال هم الوزراء وأبناء الملك، وكانت البلاد تعتبر ملكاً شخصياً لذلك الفرد السعيد، والأمة كلها فوجاً من المماليك والعبيد، ويتحكم في أموالهم وأملاكهم ونفوسهم. هذا هو العهد الذي ازدهر في الشرق طويلاً وترك رواسب في حياة الأمة ونفوسها.. ولم يكن عهداً إسلامياً ولا عهداً طبيعياً معقولاً، فلا يرضاه الإسلام ولا يقره العقل، بل إنما جاء الإسلام لهدمه والقضاء عليه، فقد كان هذا هو العهد الذي بعث فيه محمد ﷺ، فسماه الجاهلية ونعى عليه، وأنكر على ملوكه ـ ككسرى وقيصر ـ ترفهم أشد الإنكار، إن هذا العهد غير قابل للبقاء والاستمرار في أي مكان وفي أي زمان، ولا سبيل إليه إلا إذا كانت الأمة مغلوبة على أمرها أو مصابة في عقلها، أو فاقدة الوعي والشعور، أو ميتة النفس والروح[4].
لقد نخر سوس الترف الدولة العباسية وأورثها ذلاً وهواناً وخوراً وضعفاً، فلم تستطع أن تقف في وجه أعاصير المغول. لقد تفاقم الشر في مركز الخلافة «دار السلام بغداد» وسيطرت عليه مظاهرة الأبهة الملوكية والسلطان الأعمى، وتغلغل نفوذ الخدم والحشم في قصور الخلفاء، وبلغت الثروة ذروتها، ولا يمكن أن تتصور ما كان يملكه الخدم

(1) الترف، ص: 37 ـ 39.
(2) البداية والنهاية (13/ 190)، كيف دخل التتار، ص: 42.
(3) كيف دخل التتار بلاد المسلمين، ص: 42.
(4) الترف، د. محمد موسى، ص: 41.

والمماليك الذين كانوا لدى الخلفاء من المال والعقار، ويكفي أن نذكر على سبيل المثال أن علاء الدين الطبرسي الظاهري ـ وهو ممن اشتراهم الخليفة الظاهر ـ كان يحصل له من أملاكه التي استجد نحو ثلاثمائة ألف دينار سنوياً، وكانت له دار لم تكن في بغداد مثلها.

كذلك مجاهد الدين آيبك الديودار المستنصري، لقد ملك جزيل الأموال من العين والرقيق والدواب، والعقار، والبساتين، والضياع، ويتعذر وصف ما أنفقه من قناطير مقنطرة من الذهب والفضة والجواهر التي جهز بها أولاده وبناته في ليالي الزفاف. كما أن الفراش الصلاح عبد الغني بن فاخر المتوفي (648هـ)، وكان شيخ الفراشين بدار الخلافة، كان يعيش مع خلوة من العلم عيشة الملوك، بينما كان مدرسو المدرسة المستنصرية في هذا العصر ـ وهم من كبار علماء بغداد بوصفهم يدرسون في أكبر جامعة إسلامية فيها ـ لا يتقاضى الواحد منهم أكثر من 12 دينار شهرياً، وبجانب ذلك نجد أن أربعة ألف دينار ينثرها خادم للشرابي على مجد الدين آيبك المستنصري، المعروف بالديويدار الصغير عند زواجه من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وأن 3000 دينار أعطاها الشرابي للأشخاص الثلاثة الذين أتوا بطائر الموصل.

ولكي ندرك مدى نفوذ هذه المظاهر الكاذبة والتظاهر بالفخفخة والأبهة الملوكية، يجب أن نعرف أن المواكب التي تخرج في مناسبات العيد والتتويج كانت تشغل الناس، حتى أنهم يتناسون أنفسهم، ويتشاغلون عن أداء الصلوات، ونستطيع أن نقيس ذلك بالموكب الملكي الذي خرج يوم عيد الفطر سنة (640هـ) واستمر إلى الليل، وصلى الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاء[1]، وذكر في «العسجد المسبوك» أن العساكر في عاشر ذي الحجة سنة (644هـ) خرجوا إلى ظاهر البلد، وصلوا صلاة العيد وقت غروب الشمس، وأما تقبيل الأرض بحضرة الخليفة مرات عديدة فمن الأمور المألوفة، وكذلك تقبيل اليد، وعتبة باب النوبي، وحافر الخيل والأرض والرخام، وقد تميز هذا العصر بكثرة المصادرات، وتفشي الرشوة، وعزل كبار الموظفين، وإلقاء القبض عليهم، وبيع ممتلكاتهم، وتفاقم أمر الباطنية والشطار والعيارين، واشتداد النزاع الطائفي والتفكك الخلقي، والانصراف إلى الملاهي والقيان والتكاثر في الأموال[2]. لقد اهتم الحكام والأمراء والقادة في تلك الفترة التاريخية الحرجة بالتنعم والترف والانغماس في

(1) رجال الفكر والدعوة (1/ 274).

(2) المصدر نفسه (1/ 274).

الشهوات، والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهني[1]، وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة، وابتعدوا عن الشرع بالهلاك والعذاب، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود، آية: 116]. وقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء، الآيات: 11، 13]. وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطلاق، الآيات: 8 ـ 10].

16 ـ الوصول إلى آخر نقطة من الانحلال والتدهور: ذكرت في أسباب سقوط الدولة العباسية ضعف شخصية المستعصم بالله، إلا أن بعض الباحثين حاول الدفاع والثناء على الخليفة المستعصم، وبيان تمسكه بالسنة ومناهضته للبدعة وحلمه وتواضعه واهتمامه بأمور الرعية ومصالح الدولة. . .[2] إلخ.

كما أن شيخنا الجليل والمفكر الإسلامي الكبير أبا الحسن الندوي ذهب إلى هذا الرأي، وأشار إلى أن الخرق اتسع على الراقع بقوله: كان المستعصم رجلاً صالحاً حسن السيرة والفكر، وكان يحرص على إصلاح الأوضاع ورفاهية البلاد، ولكن فساد النساء واضطرابهم وفساد رجال الحكومة، بلغ مبلغاً لا يسلم منه إلا من رزق الإرادة القوية والشخصية العبقرية، ومن يستطع أن يقف سداً منيعاً في وجه الفساد ويتغلب على الأوضاع السيئة ولم ينفع في هذه الحال إلا العظماء الذين افتتحوا عهداً جديداً، وأسسوا حكومات جديدة في التاريخ، لقد تكرر في التاريخ أن آخر أفراد أسرة حاكمة وآخر حاكم في مملكة آخذة في الانحطاط كان يتصف بالصلاح والتقوى، غير أن تلك الأسرة أو المملكة كانت قد وصلت إلى آخر نقطة من الانحلال والتدهور، وكان الفساد قد تفاقم والكأس قد طفحت، فلم يكن هنالك من يحول بين هذه الحكومة، وبين نهايتها الأليمة التي يفرضها قانون السماء وتقتضيها طباع الأشياء، وشاءت الأقدار أن يعتبر ذلك الرجل الأخير مسؤولاً عن نهاية الحكومة في أسرته الحاكمة بالرغم من أنه كان أكثر صلاحاً

(1) رجال الفكر والدعوة.

(2) أمير المؤمنين المستعصم بالله العباسي، ص: 37 ـ 49.

وديانة، وأحرص على إصلاح الفساد من سلفه الماضيين وقد كان عدد من الصالحين مشتغلين بالعلم والتدريس والعبادة، كما كان عدد منهم منعزلين في الزوايا والمساجد، ولكن الفساد كان قد استحوذ على طبقة الحكام والمترفين[1]، يقول المؤرخ أبو الحسن الخزرجي يصف أهل العراق يومئذ: واهتموا بالإقطاعات والمكاسب، وأهملوا النظر في المصالح الكلية، واشتغلوا بما لا يجوز في الأمور الدنيوية واشتد ظلم العمال، واشتغلوا بتحصيل الأموال، والملك قد يدوم مع الكفر، ولا يدوم مع الظلم[2].

17 ـ **تدهور الأوضاع الاقتصادية:** كان لتدهور الأوضاع الاقتصادية أثره البالغ في إضعاف الخلافة العباسية، وفرض بعض الحكام الخراج المرهق على الرعية ووضعوا خطة للتحكم في شؤون الأمصار لمصلحة الطبقة الحاكمة مما آل إلى كساد الحياة الزراعية والصناعية، وكان كلما ازداد الحكام غنى، ازداد الفقراء فقراً، ولما تجزأت الدولة إلى دويلات قام كل من أولياء الأمر بابتزاز أموال رعيته، وقضت الحروب المتواصلة بإنقاص عدد الرجال العاملين، فعدت أكثر المزارع مهجورة خربة، وزاد الخراب تكرارُ الفيضان في سهول العراق الجنوبية[3]، وفي صيف سنة (654هـ/ 1256م) هطلت أمطار غزيرة، سال على إثرها سيل عظيم أغرق مدينة بغداد، لدرجة أن الطبقة العليا من المنازل غمرتها المياه واختفت معالمها تماماً. وقد استمر انهمار السيل خمسين يوماً ثم بدأ في النقصان، ونتج عن ذلك أن نصف أراضي العراق أصبحت مهجورة خربة[4].

18 ـ **الصراع الداخلي في بغداد:** كان سكان بغداد من أهل السنة والشيعة والمسيحيين واليهود، وكان هؤلاء جميعاً في خلاف دائم حول المسائل الدينية، كما كانوا يختلفون في الميول السياسية، ولا شك أن مثل هذه الحالة كثيراً ما كانت تثير الفتن والمنازعات بين السكان، ومن ذلك أنه في أواخر عهد المستعصم، نشب قتال بين الشيعة وأهل السنة، فعهد الخليفة إلى ابنه أبي بكر بفض هذا النزاع[5]، فقام أبو بكر بن المستعصم والدويدار الصغير، فشدًّا على أيدي السُّنة حتى نُهب الكرْخ، وتمَّ على الشيعة بلاء عظيم، فحنق لذلك مؤيد الدين بالثأر بسيف التتار من السنّة، بل ومن

(1) رجال الفكر والدعوة، (1/ 277).
(2) المصدر نفسه (1/ 277).
(3) جهاد المماليك، ص: 254.
(4) جهاد المماليك، ص: 254.
(5) المغول، للصياد، ص: 254.

الشيعة واليهود والنصارى[1].

19 ـ خيانات الشيعة (الوزير ابن العلقمي): هو أبو طالب مؤيد الدين محمد بن أحمد بن علي بن أبي طالب ابن العلقمي البغدادي الرافضي[2]، قال السبكي: كان شيعياً رافضياً في قلبه غلّ على الإسلام وأهله[3]، قال الذهبي: تولى الوزارة للخليفة العباسي «المستعصم» مدة أربع عشرة سنة، أفشى خلالها الرفض فعارضته السنة، فأُكْبِتَ فتنمّر[4].

وقال ابن كثير: كان رافضياً خبيثاً ردي الطوية على الإسلام وأهله[5]، وقال في موضع آخر: كان شيعياً جلداً، ورافضياً خبيثاً[6]، فقد سعى في دمار الإسلام وخراب بغداد، كما قال الصفدي[7]، ومالأ على الإسلام وأهله الكفار، حتى فعل ما فعل بالإسلام وأهله[8]، وهو الذي حفر للأمة قليباً، فأُوقع فيه قريباً وذاق الهوان، كما قال الذهبي[9]، وأما خطواته في ذلك فهي كالتالي:

أ ـ المكاتبة: لقد كاتب هولاكو وجسّره وقوى عزمه على قصد العراق ليتخذ عنده يداً وليتمكن من أغراضه[10]، بل لقد جر هولاكو وقرر معه أموراً انعكست عليه، واستخدم في هذه المكاتبات شتى الحيل وبلغ نهاية المكر، قد حكي أنه لما كان يكاتب التتار تحيَّل مرة إلى أن أخذ رجلاً وحلق رأسه حلقاً بليغاً وكتب ما أراد بوخذ الأبر كما يفعل بالوشم، ونفض عليه الكحل وتركه عنده إلى أن طلع شعره وغطَّى ما كتب فجهزه وقال: إذا وصلت التتر مُرْهُم بحلق رأسك ودعهم يقرأون ما فيه وكان في آخر الكلام: قطِّعوا الورقة، فضربت عنقه، وهذا غاية في المكر والخزي، ولم تكن سياسة المكاتبة مع التتر هي الأولى في هذا السياق، بل سبقتها خطوات مهَّدت لها وكانت بمثابة الأرضية والمقدمة لما بعدها[11].

---

(1) سير أعلام النبلاء(23/ 362).
(2) المصدر نفسه (23/ 361).
(3) طبقات الشافعية، ص: 262.
(4) سير أعلام النبلاء (23/ 362).
(5) البداية والنهاية (13/ 202).
(6) البداية والنهاية (13/ 194).
(7) الوافي بالوفيات (1/ 184) كيف دخل التتر بلاد المسلمين، ص: 55.
(8) البداية والنهاية (13/ 202) كيف دخل التتر بلاد المسلمين، ص: 55.
(9) سير أعلام النبلاء (23/ 362).
(10) المصدر نفسه (23/ 362).
(11) كيف دخل التتر بلاد المسلمين، ص: 56.

ب ـ إضعاف الجيش: اتخذ ابن العلقمي سياسة خبيثة في إضعاف جيش الخلافة ساهمت في دخول التتر ببغداد دون مقاومة تذكر، إذ اجتهد قبل مجيء التتر في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان وصرفهم عن إقطاعاتهم، ونجح في ذلك، إذ كانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مائة ألف، فلم يزل ابن العلقمي مجتهداً في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف في أواخر أيام المستعصم، ويقول الذهبي: استوزر «المستعصم» ابن العلقمي الرافضي فأهلك الحرث والنسل، وحسّن له جمع الأموال، وأن يقتصر على بعض العساكر فقطع أكثرهم[1]. وبلغت حالة الجيش وعساكر الخلافة بالذات مبلغاً من الذل والهوان، حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وحق للشعراء أن ينشدوا فيهم الشعر ويرثوهم بالقصائد وينعوا على الإسلام وأهله[2]، وكان ذلك بسبب سياسة هذا الشيعي المغرض الذي عبر عن سياسته وأثَّر وزارته على المستعصم. قال ابن كثير حين قال: إنه لم يعصم المستعصم في وزارته، ولم يكن وزير صدق ولا مرضي الطريقة[3]، وقال في موضع آخر: إنه كان وزير سوء على نفسه وعلى الخليفة وعلى المسلمين[4]، فلما تحقق لابن العلقمي ما أراد كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال[5]، وهكذا تبدو سياسة ابن العلقمي بعيدة الغور سيئة القصد ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله[6].

جـ ـ الغدر بالقضاة والفقهاء والخليفة: ولم تقف سياسة ابن العلقمي عند هذا الحد، فقد بادر باتخاذ الخطوة العملية حين قدم التتار، وكان أول من برز إليهم، وخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه واجتمع بهولاكو، ثم عاد فأشار إلى الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة، على أن يكون نصف خراج العراق لهم، ونصفه للخليفة، فخرج الخليفة في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤساء الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل هولاكو حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً

(1) سير أعلام النبلاء (23/ 175).
(2) البداية والنهاية (13/ 191). كيف دخل التتار، ص: 57.
(3) المصدر نفسه (13/ 157)، المصدر نفسه، ص: 57.
(4) المصدر نفسه (13/ 201)، المصدر نفسه، ص: 57.
(5) المصدر نفسه (13/ 192)، المصدر نفسه، ص: 57.
(6) كيف دخل التتار، ص: 58.

خلص بهم الخليفة، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة، ويقال: إنه اضطرب في كلامه من هول ما رأى من الإهانات والجبروت، ثم أعيد إلى بغداد تحت الحوطة والمصادرة، يحيط به الطوسي وابن العلقمي ـ الشيعيان ـ ونهب من دار الخلافة أشياء كثيرة من الذهب والحلي والأشياء النفيسة، ثم أشار هؤلاء الرافضة على هولاكو بعدم مصالحة الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين، ثم يعود الأمر إلى ما كان قبل ذلك، وحسنوا له قتله، ويقال: إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي، فلما عاد الخليفة إلى هولاكو أمر بقتله[1].

د ـ دوافع ابن العلقمي: والسؤال المهم: لماذا فعل ابن العلقمي ما فعل وأحل بدار الخلافة ما حل؟ فخلاصته خبث طوية الشيعة على أهل السنة بشكل عام، وتطرف معتقدهم فيهم، وعدم تحرّجهم من التعاون مع الكفار على إبادة المسلمين السنة. يقول ابن تيمية: . . إنهم يكفّرون كل من اعتقد في أبي بكر وعمر والمهاجرين والأنصار العدالة، أو ترضَّى عنهم كما رضي الله عنهم، ويستحلون دماء من خرج عنهم، ويسمون مذهبهم مذهب الجمهور، ويرون في أهل الشام ومصر والحجاز والمغرب واليمن والعراق والجزيرة وسائر بلاد الإسلام أنه لا يحل نكاح هؤلاء ولا ذبائحهم، ويرون أن كفر هؤلاء أغلظ من كفر اليهود والنصارى، لأن أولئك عندهم كفار أصليون، وهؤلاء مرتدون. . وهم كانوا من أعظم الأسباب في خروج جنكيز خان ملك الكفار إلى بلاد الإسلام، وفي قدوم هولاكو إلى بلاد العراق، وفي أخذ حلب ونهب الصالحية وغير ذلك بخبثهم ومكرهم لما دخل فيهم من توزر منهم للمسلمين وغير من توزر منهم[2]. وقال: والرافضة تحب التتار ودولتهم لأنه يحصل لهم بها من العز ما لا يحصل بدولة المسلمين، والرافضة هم معاونون للمشركين واليهود والنصارى على قتال المسلمين، وهم كانوا من أعظم الأسباب في دخول التتار قبل إسلامهم إلى أرض المشرق لخراسان والعراق والشام، وكانوا من أعظم الناس معاونة لهم على أخذهم لبلاد الإسلام وقتل المسلمين وسبي حريمهم، وقضية ابن العلقمي وأمثاله مع الخليفة وقضيتهم في حلب مع صاحب حلب مشهورة يعرفها عموم الناس. . وإذا غلب المسلمون النصارى والمشركين كان ذلك غصة عند الرافضة، وإذا غلب المشركون

(1) سير أعلام النبلاء (23/ 183)، كيف دخل التتار، ص: 59.

(2) الفتاوى (28/ 477، 478)، كيف دخل التتار، ص: 60.

والنصارى المسلمين كان ذلك عيداً ومسرة عند الرافضة[1].

وفي منهاج السنة قال ابن تيمية: وكثير منهم ـ يعني الرافضة ـ يواد الكفار من وسط قلبه أكثر من موادته للمسلمين، ولهذا لما خرج الترك الكفار من جهة المشرق وقتلوا المسلمين وسفكوا دماءهم ببلاد خراسان والعراق والشام والجزيرة وغيرها، كانت الرافضة معاونة لهم على المسلمين، وكذلك الذين كانوا بالشام وحلب وغيرهما من الرافضة، كانوا من أشد الناس معاونة لهم على قتال المسلمين.. فهم دائماً يوالون الكفار من المشركين واليهود والنصارى ويعاونونهم على قتال المسلمين ومعاداتهم[2]، وقد ذكر المؤرخون أن الذي حمل ابن العلقمي على موقفه من التتار أن أبا بكر ابن الخليفة المستعصم والدويدار الصغير قد شدا على أيدي السنة حتى نهب الكرخ وتم على الشيعة بلاء عظيم، فحنق لذلك ابن العلقمي وأراد الثأر بسيف التتار من السنة[3]، وكاتب هولاكو وطمعه في العراق فجاء رسل هولاكو إلى بغداد، وفي الباطل معهم فرمانات لغير واحد والخليفة لا يدري ما يتم[4]، وقال ابن كثير: ولما كان في السنة الماضية (يعني سنة خمس وخمسين وستمائة) كان بين أهل السنة والرافضة حرب عظيمة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة، حتى نهبت دور قرابات الوزير «ابن العلقمي» فاشتد حنقه على ذلك، فكان هذا مما أهاجه على أن دبَّر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد وإلى هذه الأوقات[5].

هـ ـ المكر السيئ يحيق بأهله: قال تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [سورة فاطر، الآية: 42] .لقد دخل التتار وجندهم بغداد ووقع ما وقع من الظلم والفساد وسفك الدماء وهتك الأعراض، ولم يكن ابن العلقمي بعيداً عن ذلك كله، ولا سالماً منه البتة، وقد أحسن الذهبي في تعبيره وكان دقيقاً في وصف حالته حين قال: وحفر للأمة قليباً، فأوقع فيه قريباً، وذاق الهوان وبقي يركب كديشاً بعد أن كانت ركبته تضاهي موكب السلطان، فمات غبناً وغماً وفي الآخرة أشد خزياً وأشد تنكيلاً[6].

ونقل الصفدي ندم ابن العلقمي، حيث لا ينفعه الندم وكان كثير ما يقول: وجرى

(1) الفتاوى (28/ 527، 528)، كيف دخل التتار، ص: 61.
(2) منهاج السنة (2/ 104)، كيف دخل التتار، ص: 62.
(3) سير أعلام النبلاء (23/ 362)، كيف دخل التتار، ص: 62.
(4) سير أعلام النبلاء (23/ 180)، كيف دخل التتار، ص: 63.
(5) البداية والنهاية (13/ 191)، كيف دخل التتار، ص: 64.
(6) سير أعلام النبلاء (23/ 362).

القضاء بعكس ما أملته، لأنه عومل بأنواع الهوان من أرذال التتار والمرتدة؛ حكي أنه كان في الديوان جالساً فدخل بعض التتار ممن لا وجاهة له راكباً فرسه، فساق إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير وخاطبه بما أراد، وبال الفرس على البساط وأصاب الرشاش ثياب الوزير، وهو صابر لهذا الهوان يظهر قوة النفس وأنه بلغ مراده، ولم تكن الشيعة بشكل عام ـ وهم أهله وعشيرته ـ بمنأى عن هذه الجرائم والمآثم، وعجيب أن يكون حنقه على أهل السنة، وحميته للشيعة تبيح له ذلك كله.

ويروى أن بعض أهل بغداد قال له: يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه وحميت الشيعة حميَّة لهم، وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلق لا يحصون، وارتكب من الفواحش مع نسائهم، وفضَّت أبكارهم مما لا يعلمه إلا الله تعالى، فقال: بعد أن قتل الدوادار ومن كان على مثل رأيه لا مبالاة بذلك[1]، وبلغ إذلال «التتر» له أن جعلوه تابعاً لشخص يدعى «ابن عمران» كان خادماً في دولة المستعصم[2]، ونقل النويري ما هو أشد من ذلك، إذ استدعاه «هولاكو» فلما مثل بين يديه سبّه ووبخه على عدم وفائه لمن هو غذي نعمته[3]، وذكر السيوطي أنه صار معهم في صورة بعض الغلمان وأنه مات كمداً[4].

إن موقف العلقمي لم يكن سليماً على الإطلاق، ولكننا لا نستطيع أن نحمله التبعية كلها، بل نشرك معه الخليفة ورجال حاشيته الآخرين، وعوامل تمّ ذكرها في زوال الدولة العباسية، لقد كانت أفعال ابن العلقمي جزءاً من صورة[5]. اتضحت بذكر الأسباب الأخرى التي ساهمت في سقوط بغداد. وقد عد الخميني جريمة ابن العلقمي والنصير الطوسي في قتل المسلمين من عظيم مناقبهما عندهم، فقال الخميني في الإشادة بما حققه نصير الطوسي: ويشعر الناس(يعني شيعته) بالخسارة بفقدان الخواجه نصير الدين الطوسي وأضرابه ممن قدم خدمات جليلة للإسلام[6]، والخدمات هنا ما كشفها الخوانساري من قبله في قوله في ترجمة النصير الطوسي: ومن جملة أمره المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره للسلطان ـ هولاكو خان ـ ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد لإرشاد العباد وإصلاح البلاد بإبادة

(1) الوافي بالوفيات (1/ 185).
(2) المغول في التاريخ، ص: 274، كيف دخل التتر، ص: 66.
(3) نهاية الأرب في فنون الأدب، نقلاً عن: كيف دخل التتر، ص: 66.
(4) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص: 378، كيف دخل التتر، ص: 66.
(5) العراق سياقات الوحدة والانقسام؛ بشير نافع، ص: 63.
(6) روضات الجنات(6/ 300 ـ 301) أصول مذهب الشيعة، للقفاري (3/ 1472).

ملك بني العباس، وإيقاع القتل العام في أتباع أولئك الطغاة إلى أن أسال من دمائهم الأقذار كأمثال الأنهار، فأنهار بها في ماء دجلة ومنها إلى نار جهنم دار البوار[1].

و ـ بن طاوس والخلافة العباسية: كان علي بن طاوس يرى عدم مشروعية الدولة العباسية التي لم تخرج في معتقده عن كونها دولة غصبية، وابن طاوس يعتبر من مرجعيات الشيعة في وقت سقوط بغداد وكان يعمل على إزالتها ولا يرى الوقوف بجانبها أمام أعدائها ورفض في عهد المستنصر العباسي أن يكون موفداً إلى سلطان التتار لتسوية الأزمة السياسية بين الدولتين، وكان ذلك في عام (634هـ)، لأن ذلك يجعل منه رسولاً دائماً للدولة العباسية[2].

ولما سقطت بغداد على يد المغول ونزح أهل الحلة إلى البطائح، حضر أكابرهم من العلويين والفقهاء مع مجد الدين ابن طاوس العلوي إلى حضرة السلطان ـ هولاكو ـ وسألوه حقن دمائهم فأجاب سؤالهم وعين لهم شحنة فغادروا إلى بلادهم وأرسلوا إلى من في البطائح من الناس يعرفونهم ذلك فحضروا بأهلهم وأموالهم وجمعوا مالاً عظيماً وحملوه إلى السلطان فتصدق عليهم بنفوسهم[3].

ولما تم احتلال بغداد أمر هولاكو أن يستفتي العلماء: أيما أفضل السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر؟ ثم جمع العلماء وكان رضي الدين علي بن طاوس حاضراً المجلس وكان مقدماً محترماً فلما رأى إحجامهم تناول الفتيا ووضع خطة فيها بتفصيل العادل الكافر على المسلم الجائر، فوضع الناس خطوطهم بعده[4]، وقد طلب ابن طاوس الأمان من هولاكو قبل فتحها، وزاره، واستدل بكلام منسوب لعلي بن أبي طالب كذباً وزوراً يشنع فيه على بني العباس، فلما وصل إلى مجلس هولاكو ـ وكان ذلك قبل سقوط بغداد وقتل الخليفة ـ قال له: كيف قد تشجعت على مكاتبتي والحضور عندي قبل أن تعلموا بما ينتهي إليه أمري وأمر صاحبكم وكيف تأمنون أن يصالحني؟!! ورحلت عنه فقال ابن طاوس: أقدمنا على ذلك لأنا روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال في خطبة: الزوراء وما أدرك ما الزوراء؟! أرض ذات أثل،

(1) أصول مذهب الشيعة (3/ 1473).
(2) الفقيه والدولة، الفكر السياسي الشيعي، ص: 90.
(3) المصدر نفسه، ص: 94.
(4) المصدر نفسه، ص: 94.

يشيّد فيها البنيان، ويكون فيها مخادام وخزّان، يتخذها ولد العباس موطناً، ولزخرفهم مسكناً، تكون لهم دار لهو ولعب، ويكون بها الجور الجائر، والخوف المخيف، والأئمة الفجرة، والأمراء الفسقة والوزراء الخونة، تخدمهم أبناء فارس والروم، لا يأتمرون بمعروف إذا عرفوه، ولا يتناهون عن منكر إذا أنكروه، تكفى الرجال منهم بالرجال، والنساء بالنساء، فعند ذلك الغم العميم، والبكاء الطويل، والويل والعويل، لأهل الزوراء من سطوات الترك، وهم قوم صغار الحُدُق، وجوههم كالمجان المطرّقة، لباسهم حديد، جرد مرد، يقدمهم ملك يأتي من حيث بدا ملكهم جهوري الصوت، قويّ الصولة عالي الهمّة، لا يمر بمدينة إلا فتحها، ولا ترفع عليه راية إلا نكّسَها، الويل الويل لمن ناوأه فلا يزال كذلك حتى يظفر[1].

فلما وصف لنا ذلك ووجدنا الصفات فيكم، رجوناك فقصدناك، ويعلّق الحلي: فطيب قلوبهم، وكتب لهم فرماناً، باسم ابن طاوس يطيِّب فيه قلوب أهل الحلة وأعمالها. وهذه الرواية من أكاذيب الشيعة على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومحاولة تشويه تاريخ بني العباس على لسانه، والتزلف والتقرب إلى هولاكو الوثني، وهذا الذي قاله ابن طاوس: ولا ترفع عليه راية إلا نكّسها، الويل الويل لمن ناوأه، فلا يزال كذلك حتى يظفر[2]، يكذبها الواقع وحقائق التاريخ حيث نكست راية هولاكو في معركة عين جالوت، عندما تصدى لهم سيف الدين قطز والشعب المصري المسلم، والسائر على نهج أهل السنة والجماعة، كما أن بركة خان المغولي الذي أسلم، كسر شوكة هولاكو وهزمه هزيمة مريرة، بل مات هولاكو كمداً وغماً لما حدث لجنوده في معركة عين جالوت، وهذا ما سوف يراه القارئ الكريم بإذن الله في الصفحات القادمة.

إن ابن طاوس يتلاعب بفتاويه ويحاول أن يصور بأن هولاكو أفضل من الخليفة المستعصم، حيث إن الأول كافر عادل، والثاني مسلم جائر، وأي عدل قام به هولاكو غير الدمار والهلاك وهتك الأعراض واسترقاق الناس، ولكن هذه النفسية المريضة ترى أي ظلم وجور يقع على مسلم سني أو دولة سنية هو من صميم العدل، وأما ما قام به ابن طاوس فهو من النفاق والتزلف لهولاكو. كان ابن طاوس لا يمتنع من الدخول في المناورات السياسية المفتوحة، ويبني ذلك على رؤى ومواقف متنوعة، فقد مهد

(1) الفقيه والدولة، ص: 96.
(2) الفقيه والدولة، ص: 96.

بمجموعة من الأخبار الغيبية المختلقة، السبيل، وبفعالية غير عادية، للاسترسال في بناء علاقة حميمية بالدولة المغولية مستندة إلى نصوص إرشادية توجيهية، يعتقد ابن طاوس ـ الفقيه الشيعي ـ بأنها كفيلة برفع الحرج الشرعي[1]، ومما لا شك فيه أن رموز الشيعة في تلك المرحلة، كابن طاوس الحلي، والعلقمي، ونصير الطوسي وغيرهم كانوا من عوامل هدم وإسقاط الدولة العباسية، وكان لديهم استعداد نفسي، للتعامل مع المغول وبناء علاقات قوية معهم على حساب زوال بني العباس.

20 ـ تمرس فرسان التتار وقوة الإمبراطورية المغولية: ويجب ألا يغرب عن البال تمرس فرسان التتار بالحرب وأخذهم بأسبابها المادية وتوافر عوامل الانتصار، من قيادة حكيمة، ووضوح في الهدف، وإعداد الأفراد والحرص على الوحدة والاتحاد «وسلطة الياسا» وتقسيم الأدوار، والتخطيط السليم، والإدارة الناجحة، والتنظيم المحكم، والدعم الاقتصادي والدعاية الإعلامية لجيوشهم والحيطة والحذر من الأعداء، وغير ذلك من الأسباب التي تدل على قوة الإمبراطورية المغولية وتمرس فرسانها على القتال، فهذه هي أهم أسباب سقوط الدولة العباسية، وهي متداخلة ومتشابكة يؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالسبب الديني يؤثر في العامل العسكري، ويتأثر به... وهكذا.

إن دراسة أسباب سقوط الدول وعوامل بنائها من الأمور المهمة التي تحتاجها الأمة في مشروعها الحضاري الذي يهدف لقيادة الإنسانية بالمنهج الرباني، وتحقيق أستاذية العالم لهذه الأمة المجيدة.

ثامناً: نتائج سقوط بغداد: يعد سقوط بغداد، وانقراض الخلافة العباسية التي استمرت قائمة أكثر من خمسة قرون، من أكبر الوقائع التي حدثت في التاريخ، ولقد كان لهذا الحدث أسوأ الأثر في نفوس المسلمين جميعاً، واعتبرت هذه المأساة لطمة قاسية وبلاء شديداً سلط على رؤوسهم؛ إذ انتهكت حرمتهم على يد المغول أهل الكفر والشرك، الذين صوبوا طعنة نجلاء إلى مقام الخلافة وإلى أسرة الرسول ﷺ؛ فلا غرو أن كان لهذا الحدث نتائج خطيرة[2]، نلخصها فيما يأتي:

1 ـ زوال النفوذ الأدبي والروحي: كان المسلمون يتطلعون إلى الخلافة على أنها

(1) الفقيه والدولة، ص: 101.

(2) المغول في التاريخ، ص: 279.

رمز للممالك الإسلامية جميعها، يجب أن يظل قائماً، وكانوا ينظرون إلى الخليفة نظرة إجلال واحترام ولكن نفوذه الديني، بعيد الأثر في نفوس المسلمين جميعاً، وعلى الرغم من أن الخلافة، كانت قد فقدت منذ قرون جانباً كبيراً من قوتها المادية، فإنها كانت لا تزال تدخر قدراً كبيراً من سلطانها الأدبي والروحي، فلما سقطت بغداد وقتل الخليفة، قضي على هذا النفوذ، وزال ما كان لتلك العاصمة من مكانة دينية ممتازة[1].

2 ـ **بغداد مدينة ثانوية:** كانت بغداد قبل حملة المغول مركزاً للنشاط السياسي في جميع أنحاء الشرق الإسلامي، يؤمها وفود الحكام والأمراء المسلمين، وكانت الروابط تربط بينها وبين مختلف العواصم، فلما سقطت في أيدي المغول، صارت مدينة ثانوية، يعين عليها وال، وانتقل النشاط كله إلى مدن الشمال في أذربيجان، إذ أنها أخذت تلعب دور العواصم، ففقدت بغداد بذلك أهميتها السياسية. يقول رنسيمان: أخذت بغداد تستعيد رويداً رويداً نظافتها وتعود إلى سابق عهدها من النظام والترتيب، على أنها لم تعد بعد أربعين سنة سوى مدينة إقليمية وافرة الرخاء لا تتجاوز عشر حجمها السابق[2]، وبسقوط هذه المدينة دخل الشرق الإسلامي عامة في عهد جديد، آلت فيه السيطرة من بعد هولاكو إلى أبنائه الذين صاروا يستقلون تدريجياً عن المغول في قراقورم، وأسسوا لأنفسهم دولة في إيران، عرفت باسم «دولة الإيلخانيين»[3].

3 ـ **تدهور العلوم ومكانة اللغة العربية:** كانت بغداد مركزاً هاماً للعلوم والآداب والفنون، يهرع إليه العلماء وطلاب العلم، للتزود بالثقافة الإسلامية التي كانت تمثل هناك بأبهى معانيها. فقد كانت تلك المدينة غنية بعلمائها وأدبائها وفلاسفتها وشعرائها، وكان كل هؤلاء بمثابة أساتذة وقادة لرجال العلم والأدب في مختلف أنحاء الشرق الإسلامي، فلما حلت النكبة ببغداد على أيدي المغول، قتل آلالاف من العلماء والشعراء وشرد من نجا منهم، فلجأوا إلى مصر والشام وغيرهما من البقاع[4]، وأحرقت المكتبات وخربت المدارس والمعاهد، وقضي على الآثار الإسلامية التي تعب الفنانون المسلمون في إبداعها، كل هذا التراث المجيد، قد أصبح في التراب أثراً بعد عين. وقصارى القول أن سقوط بغداد بعد أن سقطت بخارى ونيسابور والري وغيرهما في مدن

(1) المغول في التاريخ، ، ص: 280.
(2) المغول في التاريخ، للصياد، ص: 280، تاريخ الحروب الصليبية (3/ 522).
(3) المصدر نفسه، ص: 280.
(4) المصدر نفسه.

العالم والأدب، كان حقاً جناية كبيرة على الحضارة والثقافة، إذ فقدت اللغة العربية تلك المكانة التي كانت تتمتع بها قبل الغزو في ميادين الثقافة العلمية والأدبية. وبفتح المغول لهذه العاصمة الكبيرة تمت الخطوة النهائية في سبيل تفوق اللغة الفارسية على اللغة العربية، ورغم أن هذه اللغة قد بقيت كلغة علمية وأدبية في إيران، ولم يستطع الأدباء والكتاب الإيرانيون أن يكفوا عن تعلمها والتأليف بها، إلا أن عنايتهم باللغة الفارسية كانت أشد وأقوى لأنها اللغة التي استطاعت أن تشبع رغبة العامة، وتوافق إحساس الناس في ذلك الوقت. يقول بروان: إن تحطيم بغداد، كعاصمة للمسلمين، وإنزالها إلى مرتبة المدن الإقليمية قد أصاب رباط الوحدة بين الأمم الإسلامية بلطمة شديدة، كما أصاب مكانة اللغة العربية في إيران بضربة قاصمة، فاقتصر استعمالها بعد ذلك على العلوم الفقهية، فإذا وصلنا إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، لم نعد نصادف إلا القليل النادر من الكتب العربية التي تم تأليفها في إيران[1].

4 ـ البهجة والفرح لدى النصارى: عمت البهجة والفرح أطراف العالم النصراني، وقد زاد من فرح النصارى أنهم كانوا يتعاونون مع التتار في هذه الحملة الأخيرة، ودخل ملك أرمينية وملك الكرج وأمير أنطاكية في حزب التتار، وزاد من فرحهم أن التتار صدقوا وعودهم، فإنهم قد وعدوا النصارى ألا يمسوهم بسوء في بغداد، وتم لهم ذلك، بل إن هولاكو أغدق الهدايا الثمينة على «ماكيكا» البطريرك النصراني، وأعطاه قصراً عظيماً من قصور الخلافة العباسية على نهر دجلة، وجعله من مستشاريه ومن أعضاء مجلس الحكم الجديد ومن أصحاب الرأي المقربين في بغداد[2]، لقد ابتهج المسيحيون بسقوط بغداد وزوال الدولة العباسية، وكتبوا في نشوة النصر عن سقوط بابل الثانية، وهللوا لهولاكو وزوجته المسيحية دوقوز خاتون، واعتبروهما قسطنطين وهيلينا، وأنهما ليسا إلا أدوات الله للانتقام من أعداء المسيح[3].

غير أن ارتياح المسيحين وسرورهم لم يستمر طويلاً، إذ لم يمض زمن طويل حتى قهر المسلمون غزاتهم في معركة «عين جالوت» عام (658هـ) بقيادة سيف الدين قطز، يأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى.

5 ـ القاهرة عاصمة الخلافة: تأثر المسلمون أشد التأثر لسقوط بغداد، وخلوّ

(1) تاريخ الأدب في إيران، ص: 564، المغول، ص: 181.
(2) قصة التتار، ص: 169.
(3) المغول، للصياد، ص: 182، تاريخ الحروب الصليبية (3/ 522).

الأرض من وجود خليفة يكون له المقام الروحي المرموق، وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول: إن ما حدث من استئصال الأسرة العباسية، وتدمير العاصمة، جعل زعامة المسلمين شاغرة، يتطلع لاحتلالها كل زعيم طموح من المسلمين، فلما تولى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عرش مصر، بحث عن أحد أفراد الأسرة العباسية ونصبه خليفة في مصر سنة (659هـ/ 1260م) وهكذا قامت الخلافة العباسية في مصر، وكان لها شبه سلطة روحية في مدينة القاهرة، وبهذا انتقل النشاط السياسي والثقافي إلى مصر التي أصبحت قبلة أنظار المسلمين. وكان الظاهر يرمي من وراء إحياء الخلافة العباسية في مصر، إلى أن يُكْسِبْ سلطته صفة شرعية بفضل التقليد الذي حصل عليه من الخليفة، وأن يمتد ملكه، ويوسع سلطانه بمساعدته باعتباره حامي الدين[1]، وقد استمر هذا الوضع قائماً في مصر إلى أن استولى عليها السلطان العثماني سليم الأول عام (923هـ/ 1517م)، فألغى منها الخلافة العباسية، وبذلك انتقلت الخلافة إلى القسطنطينية حاضرة العثمانيين[2].

6 ـ **انتشار التشيع:** كان لسقوط بغداد أثره البالغ في انتشار التشيع، فالمعروف أن الخلافة العباسية السنية اشتهرت في ذلك الوقت بمحاربة التشيع والحد منه في مناطق إيران وغيرها، إلا أنه بالقضاء على الخلافة العباسية انتشر التشيع في تلك المناطق بطريقة غير مألوفة، نتيجة لازدياد نفوذ رجال الشيعة الذين أصبحوا يتبوؤن المراكز الهامة لدى المغول، كنصير الدين الطوسي الذي كان مستشاراً لهولاكو، ووزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي الذي أسند إليه حكم بغداد بعد سقوطها، هذا بالإضافة إلى ازدياد نفوذ المسيحيين الذين ساعدوا هولاكو في الاستيلاء على بغداد والقضاء على الخلافة العباسية، إذ من المؤكد أن يحظوا بمكانة عالية في تلك المناطق على حساب مكانة السكان المسلمين، خاصة وأن دوقوز خاتون زوجة هولاكو ـ التي كانت مسيحية نسطورية ـ لم تكن تألو جهداً في التعاطف مع المسيحيين الشرقيين، والعمل على رفع شأنهم لدى زوجها هولاكو[3].

7 ـ **تفجّر طاقات الأمة (قانون التحدي):** شعرت الأمة بالخطر العظيم على دينها وعقيدتها، فبدأت تتحضر وتستعد للثأر من المغول، وتولى قيادة المعركة في عين

(1) النظم الإسلامية، ص: 130 حسن إبراهيم حسن.
(2) المغول، للصياد، ص: 283.
(3) جهاد المماليك، ص: 64.

جالوت سيف الدين قطز، فلم تأت تلك المعركة من فراغ، وأبداً لم تكن منفصلة عن معركة بغداد، والمدة الزمنية بينهما نحو عامين فقط، ولم تكن هذه الفترة بين المعركتين فترة سكون وترقب، أو فترة سلام، أو مهادنة، لا... بل كانت سلسلة معارك متصلة، فجاءت معركة عين جالوت ثمرة طبيعية ونتيجة حتمية لها، إذ كانت ضربة ثأر قاصمة، لم تقم للتتار بعدها قائمة[1]. لم يكن الطريق إلى عين جالوت سهلاً ولا ليناً، وإن مئات الآلآف الذين استشهدوا في سبيل الله ربما لم يكن أمامهم بارقة أمل في النصر أو النجاة، ولكنهم آثروا الشهادة، ضرباً للمثل وإعذاراً إلى الله وتعليماً لمن يليهم[2]، وسيأتي الحديث مفصلاً بإذن الله تعالى.

8 ـ مولد عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية (656هـ): في عام(656هـ ـ 1258م) ولد لأرطغل ابنه عثمان الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية، وهي السنة التي سقطت فيها بغداد عام (656هـ) على أيدي المغول، لقد كان الخطب عظيماً والحدث جلل، والأمة ضعفت ووهنت بسبب ذنوبها ومعاصيها، ولذلك سلط عليها المغول، فهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء، وقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، وخربوا الديار.

في تلك الظروف الصعبة، والوهن المستشري في مفاصل الأمة ولد عثمان مؤسس الدولة العثمانية، وهنا معنى لطيف ألا وهو أن بداية الأمة في التمكين هي أقصى نقطة من الضعف والانحطاط تلك بداية الصعود نحو العزة والنصر والتمكين، إنها حكمة الله وإرادته ومشيئته النافذة، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص، الآية: 4]، قال سبحانه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص، الآيات: 5 ـ 6]، وكانت بداية التمكين لبني إسرائيل بمولد موسى عليه السلام، ولا شك أن الله تعالى قادر على أن يمكِّن لعباده المستضعفين في عشية أو ضحاها، بل في طرفة عين، وإنما أراد الله تعالى أن نتعلم ونراعي السنن الشرعية والسنن الكونية ولا بد من الصبر على دين الله، وإذا أراد الله شيئاً هيأ له أسبابه، وأتى به شيئاً فشيئاً بالتدرج لا دفعة واحدة. وبدأت قصة التمكين للدولة العثمانية مع ظهور القائد عثمان، الذي ولد في عام سقوط الخلافة

(1) نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي، د. عبد العظيم، ص: 148، .

(2) المصدر نفسه، ص: 154.

العباسية في بغداد[1].

9 ـ موقف الشعراء من سقوط بغداد: كان لهذا الحدث الجلل تأثيره العميق في نفوس المسلمين جميعاً، وكان أشد وقعاً وأعظم تأثيراً في نفوس الشعراء منهم، فنظموا المراثي التي تشيع الأسى في النفس وتثير الشجون وكان من تلك المراثي:

أ ـ تقي الدين بن أبي اليسر: قال تقيُّ الدين بن أبي اليسر قصيدته في بغداد وهي:

لسائلِ الدمعِ عن بغدادَ أخبار ... فما وُقُوفُك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراءِ لا تَفِدُوا ... فما بذاك الحِمى والذَّار ديّارُ
تاجُ الخلافة والرّبعُ الذي شرُفت ... به المعالم قد عفَّاه إقفار
أضحى لعصف البِلى في ربعه أثر ... وللدموع على الآثار آثارُ[2]
يا نارَ قلبيَ من نارٍ لحرب وغى ... شبت عليه ووافي الرَّبع إعصار
علا الصليبُ على أعلى منابرها ... وقام بالأسر من يحويه زُنَّارُ
وكم حريم سبتهُ الترك غاصبة ... وكان من دون ذاك الستر أستار
وكم بدور على البدرية انخسفت؟ ... ولم يَعُد لبدور منه إبدار
وكم ذخائر أضحت وهي شائعة ... من النهاب وقد حازته كفار
وكم حدودٍ أقيمت من سيوفهم ... على الرقاب وحُطَّتْ فيه أوزار
ناديتُ والسَّبْيُ مهتوك تجرّهم ... إلى السفاح من الأعداء دُعّار[3]

ب ـ شمس الدين الكوفي الواعظ: حيث قال:

عندي لأجل فراقكم آلام ... فإلام أعذَل فيكم وأُلام
من كان مثلي للحبيب مفارقاً ... لا تعذلوه فالكلام كلام
نعم المساعد دمعي الجاري على ... خَدِيَّ إلا أنه نمّام
ويذيب روحي نوْح كل حمامة ... فكأنما نوح الحمام حِمَام
إن كنتَ مثلي للأحبة فاقداً ... أو في فؤادك لوعة وغرام
قف في ديار الظاعنين ونادهما ... يا دار ما صنعت بك الأيام

(1) الدولة العثمانيّة، للصّلاّبي ص: 47، .
(2) شذرات الذهب (7/ 469)
(3) المصدر نفسه (7/ 470).

أعرضت عنك لأنهم مذ أعرضوا ... لم يبق فيّ بشاشة تُشَام
يا دارُ أين زمان رَبعك مونقاً ... وشعارك الإجلال والإكرام
يا دار مُذ أفلت نجومُك عمّنا ... والله من بعد الضياء ظلام
فلبُعدهم قَرُب الردى ولفقدهم ... فُقد الهدى وتزلزل الإسلام
فمتى قبلتِ من الأعادي ساكناً ... بعد الأحبة لا سقاك غمام
يا سادتي أما الفؤاد فشيِّق ... قَلِق وأما أدمعي فَسِجام
والدار مذ عدمت جمال وجوهكم ... لم يبق في ذاك المقام مُقام
لاحظ فيها للعيون وليس للأقدام في عرصاتها إقدام

إلى أن قال:

يا غائبين وفي الفؤاد لبعدهم ... نار لها بين الضلوع ضرام
لا كُتْبكُم تأتي ولا أخباركم ... تُروى ولا تُدنيكم الأحلام
أقصتْكُم الدنيا عليّ وكلما ... جَدَّ النوى لَعِبَتْ بي الأسقام
ولقيت من صرف الزمان وحوره ... ما لم تُخيّله لِيَ الأوهام
يا ليتَ شعري كيف حال أحبتيَ ... وبأي أرض خيّموا وأقاموا
ما لي أنيس غير بيت قاله ... صَبٌّ رمته من الفراق سهام
والله ما اخترت الفراق وإنما ... حكمت عليّ بذلك الأيام[1]

ولم يكن هذا الشعور مقصوراً على شعراء العرب وحدهم، بل شاركهم في هذا الميدان شعراء الفرس كذلك، حتى إننا لنجد الشاعر الكبير سعدي الشيرازي ـ الذي كان يعيش في ذلك الوقت في شيراز آمناً مطمئناً بعيداً عن ميدان المعركة ـ لا يستطيع أن يخفي تأثره لهول هذا المصاب، فينظم قصيدة فارسية يرثي فيها المستعصم، ويبدي تحسره وتأسفه على زوال الخلافة العباسية، وترجمة ما قاله من شعر بالعربية:

للسماء حق إذ بكت على وجه الأرض دماً
لزوال ملك المستعصم أمير المؤمنين

كما نظم هذا الشاعر قصيدة أخرى عربية على نفس الموضوع كانت أروع قصائده، وكأنه أراد أن ينعي بهاتين القصيدتين الخلافة الإسلامية للمسلمين أجمعين: الفرس منهم

(1) أصداء الغزو المغولي، مأمون جرّار، ص: 146.

والعرب على السواء:

حبست بجفنيّ المدامع لا تجري
فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها
تمنيت لو كانت تمر على قبري[1]

(1) المغول في التاريخ، ص: 286.

obeikandl.com